من نافذة العقل

ألم وطب، وأدب وحب

د.نقولا فياض

الكتاب: من نافذة العقل.. ألم وطب، وأدب وحب.

الكاتب: د.نقولا فياض.

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فياض ، نقولا

من نافذة العقل.. ألم وطب، وأدب وحب./ د.نقولا فياض.

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٦٠٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٩٩٤ / ٢٠٢٢

من نافذة العقل

ألم وطب، وأدب وحب



أحلام الهستريا

الهذيان، المشيطنون، ديوان التفتيش

أتى حين من الدهر كان فيه مستشفى "السالبانزيار" في باريس قبلة أنظار أطباء وعلماء النفس وجمهور المثقفين، للآفاق الجديدة التي كشفها الأستاذ شاركو في دروسه عن الأمراض العقلية والعصبية، ولكن لم يكن من السهل على الغريب عن المهنة الوصول إلى استماع هذه الدروس لأن شاركو كان يقفل أبواب ناديه دون العامة من الناس أولا لأن هذه المباحث الجديدة التي كانت تنذر بانقلاب غير يسير في المعارف الفلسفية والتاريخية والحقوقية لم يكن من ورائها سوى التعب للعقول غير المستعدة، وثانياً لأنه كان يضن بالإنسانية المتألمة أن تكون ملهى للناظرين كما على ملاعب التمثيل، وثالثاً لأن مشهد النوب العصبية يعدى، وكثير من المستعدين لهذه الأمراض تؤثر فيهم هذه الأمور إلى درجة يضطر معها الطلبة والمساعدون إلى ترك أستاذهم أثناء المحاضرة والانصراف إلى الاهتمام بمن تصيبه النوبة من السيدات الحاضرات.

إن نوبة الهستريا القائمة على حركات تشنجية في الأعضاء وهياج متقطع تنتهي بهذيان يتخيل فيه المريض بقوة وإيمان أنه يرى ويعيش بعض حوادث هامة من حياته الماضية. ففي القرون الوسطى وحتى القرن الأخير

عندما كانت التربية الأوربية دينية محضة، وعذاب النفس قائماً على العراك بين الأرواح الطيبة والخبيثة، كان للشياطين والملائكة المدخل الأكبر في هذا الهذيان؛ أما اليوم فكل بنات العوام تقريباً، اللواتي يعالجن في المستشفيات، هذيانهن عاطفي محزن أكثر مما هو روحاني يثيره هجر صديق أو جفاء حبيب، على أن هذا الهذيان لا يحيد في تطوره شعرة عن الهذيان القديم.

يروى أن مريضة في مستشفى شاركو ألمت بها النوبة العصبية للمرة الأولى وهي في السادسة عشرة على أثر حريق التهم منزل أبيها، ثم بعد زمن كانت تشهد رواية "جول ڤرن" الذي طاف حول الأرض في ثمانين يوماً، فهالها مشهد الأفاعي عند ظهورها على المسرح والتفافها حول اثنين من الممثلات فأصابتها النوبة ثانية. ولما هجرها حبيبها صارت النوب تعودها كل يوم، وهذيانها يتناول الحريق والأفاعي والهجران كأنما هي تعيش وسط هذه الحوادث، فكانت تغمض عينيها وتمد يديها كأنها تدفع هذه الأفاعي الهائلة وهي تقص ما ترى مرتجفة هلعاً، وتصف المشاهد وصفاً دقيقاً رائعاً، ثم تفيق من غيبوبتها وهي مثلي ومثلك كأنه لم يقع شيء.

أمثال هذا الهذيان يتطور في جهات محدودة هاك أهمها:

١- يكون الهذيان كاملاً والتخيل مطلقاً فيحمله المريض كأنه شيء واقعي ويقصه بإخلاص وصدق.

٢- ليس الهذيان اختراعاً من عقلها بل تذكارات لأمور جرت إلا أنها تتوسع في وصفها وتخلع عليها حلة مسرحية.

٣- ليست الرؤيا جامدة فقد تظهر إلى يمين المريضة أو يسارها ثم تتقدم

وتختفي عندما تصير قبالة وجه المريض.

هذه الخواص الثلاث تساعد على إلباس القصة التي يرويها المهسترون أو المهسترات ثوباً من الحياة يزيد في تقريبها من الواقع.

ومن المعروف أنه يمكن في حالة النوم المصطنع أن توحي إلى النائم ما تريد من الخيالات فتريه زهراً وتنشقه عطراً وتطعمه سكراً أو ملحاً، وتجعله يسمع كلاماً أو يلمس أشياء وهمية لأن المصاب بالهستريا محروم من الإرادة فهو كالشمع الطري ينطبع عليه ما تشاء الإرادة الغريبة عنه فيتصور حقاً أنه يرى ويسمع ويستنشق ويتذوق ويلمس ما يحدثونه عنه. وهو يقص حالة هذيانه بعبارات سيالة فيها الكثير من دقة التفاصيل حتى يخال أنها الحقيقة بعينها.

إذن قد يكون سبب الهذيان تذكار مشهد من الحياة الماضية أو تسلط إرادة غريبة، ولكن ثمت أموراً أكثر غرابة فقد يوحي المهستر إلى نفسه في الليل أثناء نومه الطبيعي أو بتأثير الحلم (لأن للأحلام مدخلاً كبيراً في حياة المهسترين) أضغاثاً يبلغ مدى تأثيرها درجة تبقى أثرها في الذاكرة بعد اليقظة كأنها شيء واقعي. ولا بأس من الإسهاب في هذا الباب.

كثيراً ما يقع للمريضة في المستشفى أن تعلق بحب أحد الطلبة أو أن يتولد فها كراهة له ونفور منه، فتحلم به في نومها. وفي الغد عند اليقظة يكون أول ما تعمل الشكوى من التلميذ وأحياناً من الأستاذ نفسه مدعية أنه راودها عن نفسها. وقد يكون للشكوى ذيول لها أثرها لأسباب مختلفة كغياب الشهود مثلاً أو الصعوبة التي يلاقيها المتهم في تبرئة نفسه، فتصور

أيها القارئ ما يمكن الانتهاء إليه بهذه الشكوى، ولا سيما لأنها تحمل ظاهرة الحقيقة بما فيها من التفاصيل والدقة في الوصف مما يحير أعظم القضاة لدى الاستنطاق.

ولا يمكن الاعتراض بأن محاولة الاعتداء على طهارة فتاة لا بد أن تترك أثراً من آثار العراك كالجراح أو غير ذلك، فالهذيان نفسه يترك مثل هذه الآثار وإليك بعض الأمثلة:

يحكى أن فتاة عصبية المزاج شاهدت في النهار شاباً تعرفه معرفة سطحية. لم يكن للأمر أهمية في حد ذاته، ولكنها حلمت به في الليلة التالية – كما يحدث للواحد منا عندما يحلم شيئاً وقع له حديثاً – حلمت أنه لاحقها بشدة في طريقها، وكانت المسافة طويلة شاقة، وعندما أعيتها الحيلة ولم يبق لها قوة لمتابعة السير ألقت بنفسها في حفرة فكسرت ساقيها.

نهضت الفتاة في الغد بعد هذا الحلم وهي منهوكة القوى ولا سبيل إلى تحريك رجليها، وأخذت تقص بحرارة الواثق من نفسه، المؤمن بما يقول أن فلاناً تبعها في الطريق وسبب لها السقوط والكسر. وبعد الفحص ظهر أن الساقين غير مكسورتين ولكن بهما شللا. وقد بقي هذا الشلل ستة أشهر. إذاً يكفي حلم بسيط عند أمثال هؤلاء المرضى ليترك آثاراً مادية يخال معها أن القصة واقعية. وإليك ما هو أهم.

قضت إحدى المهسترات الليل في سريرها وهي تتألم كما شهد بذلك جاراتها المريضات والممرضات اللائي لم يفارقها لحظة، دون أن يكون هناك

في الظاهر ما يزعجها في نومها. ولما استيقظت صباحاً أخذت تقص حادث الليل وأنها أشبكت بالعراك مع أحدهم – وذكرت اسمه – وقد حاول السامعون إقناعها أنها حلمت حلماً فما أفلحوا بل كانت تشكو من ألم في بدنها هنا وهناك، وأبدت في الموضع الذي أدعت أن المعتدي ضربها فيه بقعاً من الدم المتجمد. هذا الدم المتجمد قد يظهر بتأثير الاستيحاء بالحلم والتصور، وإن هو سوى اضطراب موضعي في الدورة الدموية، والبرهان على ذلك اختبار بسيط طالما أجروه في مستشفى "السالباتريار": ضع على يد المريضة ورقة مصمغة أو طابع بريد مثلاً وأربطه برباط سميك واختمه بالشمع حتى لا تمد إليه اليد. ثم أكد للمريضة أن ما وضعوه على يدها "حراقة" فتجد بعد ساعات عند رفع الرباط أن الإيحاء قد كفى ليفعل فعل الحراقة الحقيقية فإذا بالجلد قد ارتفع وتكون تحته سائل. هذا الاضطراب الموضعي الذي يسببه تأثير الإيحاء أو الحلم يفسر بشلل مؤقت في الأعصاب المحركة للأوعية والشرايين وهكذا يخلق الحلم حقيقة.

* * *

ليست هذه الأمور هامة لذاتها فقط بل لما تجره من العواقب في القضاء فقد يحكم على بريء إذا شكاه مهستر صادق في اعتقاده، غير أن هذه الحوادث أصبحت نادرة الوجود في حياتنا الحاضرة. على أنه بالرجوع إلى الماضي يمكننا أن نجد فيما وصلنا إليه حديثاً تفسيراً لكثير من الوقائع التاريخية التي بقيت غامضة زمناً طويلاً.

إذا قلبنا صفحات التاريخ فيما يتعلق بقديم الدعاوى التي كانت تقام

على السحرة والشياطين والمشيطنين، فإن من غريب ما يسترعى انتباهنا قوة الملاحظة وفرط الاهتمام بالحقيقة والعناية الكبرى التي كان يبديها قضاة محاكم التفتيش لذلك العهد في سرد الوقائع بالتفصيل وتقييد كل شاردة.

ولا غرو إذا بلغ اهتمام أولئك الرجال الذي سودت فظائعهم صحائف الماضي هذا الحد من الدقة والتنظيم في ذكر الحوادث على نزاهة المقصد وحسن النية فقد كانوا يعتقدون أنهم يحاربون الشيطان عدو البشر الأزلي.

وجميع الحوادث التي تعاقبت على مستشفى السالباتريار وكانت موضوع الدرس والاستقصاء العلمي وجدوها فيما بعد واردة في تلك الدعاوى بحذافيرها فكأن أولئك القضاة كتبوا من غير أن يدروا تاريخاً شاملاً للأمراض العصبية كما كانت ولا تزال، دون أن يتبدل فيها شيء سوى معالجتها فناب الرفق عن التعذيب واستعيض عن اللهيب بالماء الصبيب.

ذكر "جيل دلاثورث" في كتابه الجامع لهذه العبر التاريخية حادثة "سانت تريز" وأحلامها وغيبوبتها. وقد أجمع الأطباء على احترام هذه القديسة حتى إن شاركو نفسه وصفها بالعبقرية للدقة التي أظهرتها في تحليل دائها حتى أدخلتنا هيكل أسراره.

ولكنهم – أي الأطباء – لم يكونوا عند هذا التحفظ في درسهم حياة قديسة أخرى هي رئيسة دير الأرسولين في لودون. فقد كانت العفة

والخوف على العفة الشغل الشاغل لهذه المرأة المريضة، فإذا نابها العارض العصبي رافقه أحلام غريبة كزيارة الدوق بوفور الجميل الطلعة، في صورة ملاك أو زيارة الشيطان فيهزها هزاً عنيفاً ويحاول إغرائها بشتى الوسائل وأفظعها كما تقول ثم يقنعها بأنها حامل.

وقد أثارت قصصها ضجة عظيمة حتى اضطر لوباردون سكرتير رشيليو إلى التدخل فقدم عنها بياناً ضافياً إلى معلمه فحكم عليها كما حكم على الكاهن غرانديه بالنار لأنه تجلى لها في الرؤيا.

وكم من الذين حكم عليهم على هذه الطريقة، ولا ذنب لهم سوى أضغاث أحلام، ولا سيما النساء فهذه ترى الشيطان آتياً إليها في شكل إيل فيضرب برأسها الجدار، ثم يطرحها أرضاً ويهشمها، وتلك تظهر على بدنها بقع سوداء من جراء لطم الشيطان لها بذنب من حديد كلما بدا منها تمنع أو عصيان.

لقد أظهرت بحوث شاركو وزملائه أن هذه الحوادث من أعراض الهستريا وهذيانها. وسواء أجاء هذا الهذيان عقب حلم أم نوبة عصبية فإنه يدل على ما كان يشغل ذلك العصر بالأكثر، وهو تدخل الشيطان في كل كبيرة وصغيرة، حتى إن بطلان الإحساس الجلدي في ناحية من الجسم الذي نسميه اليوم الفلاجة أو الخدر الموضعي كان يطلق عليه اسم خاتم الشيطان. ولم تتبدل الأعراض أي تبدل، فأضغاث الأحلام في عهد لويس الثالث عشر ورشليو، كما في عهد شاركو، هي هي لا تزال تترك في البدن آثاراً شاهدة على ضغط أنامل الشيطان.

* * *

إن فضل العلم أنه فتح باباً جديداً ندخل منه إلى درس التاريخ على ضوء الحقائق الطبية فيخلع نوراً جديداً على بواطن النفوس، نفوس أولئك المرضى وجلاديهم.

لقد كان الشيطان يزعج بخطاياه النساء المهسترات ولا سيما المتزمتات منهن فكانت أعصابهن سريعة التأثر، وزاد في ذلك حياتهن المشتركة فسرعان ما كانت العدوى تسرى من الواحدة إلى الأخرى. وجاء التبجح وحب الظهور ضغثاً على إبالة فكن يتهمن أنفسهن في حالة الهذيان بصداقة العفاريت ويفاخرن بالجحيم، فأنى النجاة من القصاص، وكيف لا يعاقب بالنار هؤلاء الناس أعوان الشياطين.

وقد مر بنا أن قضاة التفتيش كانوا يقيدون بدقة كل ما يروى لهم عن تلك الحوادث فإذا كانوا قساة القلوب فقد كانوا يعملون حسبما يوحى إليهم الضمير، مقتفين بقداسة مهمتهم في طردهم الشيطان عدو البشر وتطهير الأرض منه.

وقد وصمهم المؤرخون والشعراء بالعار إلا أن العلم ينزع عنهم هذه الوصمة لأنه لم يكن في مقدورهم أن يصفوا غير ما وصفوه.

ومهما يكن فإن هذه الأخطاء أصبحت نادرة اليوم وآخر ما جرى من هذا القبيل حادثتان ليس العهد بهما ببعيد. الأولى أوردها الأسقف "دي سكور" في كتيب له أراد به تخويف الناس من الشيطان. وتحرير الخبر أن شاباً من الأتقياء الصالحين زاره إبليس ليلا فنهض صباح الغد وعلى كتفه بقع مكمدة من ملامسة الشيطان له. وادعى بعضهم أن ذلك من

مخترعات الأسقف جاء به لدعم حجته على أن صحتها ممكنة لأن اختبارات شاركو تؤيد حصول مثل هذه الرضوض عند المهسترين إبان أحلامهم.

والثانية صورة طبق الأصل لما جرى مع رئيسة دير الأرسولين والكاهن غرانديه سنة ١٦٣٤. وذلك أن بنت الجنرال... كانت نائمة فاستيقظت على صوت تكسر زجاج النافذة فأزاحت الستار ورأت على ضوء القمر يداً تمتد إلى مزلاج النافذة ثم دخل شاب عرفته حالاً فاحتمت بالكرسي، ولكنه هجم عليها قائلاً جئت لأنتقم، وطرحها أرضاً ونزع عنها القميص وأخذ بضربها ضرباً مبرحاً ثم طعنها بالسكين في فخذها فصاحت من الألم، واستيقظت الخادمة في الغرفة المجاورة ولكنها لم تر شيئاً ولم تسمع سوى تنهدات الفتاة في حالة العارض العصبي.

والظاهر أن الضربات لم تكن شديدة إذ شوهدت الفتاة في حفلة راقصة بعد يومين من الحادث أما الشاب فحكم عليه بالحبس عشر سنوات قضاها في سجن كلرفو وبعد خروجه منه ظهرت براءته لأنه تبين للقضاة أنه في تلك الليلة المشئومة كان عند عشيقة له ذات بعل، وإنما خوف الفضيحة منعه من الإقرار وأثبت عليه التهمة.

تلك حوادث قديمة لم يبق سبيل إلى مثلها اليوم وكلها تدل على أن تعاليم شاركو في السالباتريار لم تخدم العلم فقط بل القضاء أيضاً.

ولا شيء أحفل بالطرف من تاريخ الفكر البشري في علاقته مع المجهول وهو كالعسيف يتحسس في الظلمة ولا هادي له سوى نور ضئيل

يجود به عليه عقله المسكين. وقد طرق الأستاذ بيتر هذا الباب في سياق حديثه عن الهستريا فذكر عند كلامه عن التنويم ما قاساه الإنسان من الشكوك وحاربه من الأوهام في سبيل الوصول إلى الحقيقة وإماطة اللثام عن الأسرار الكونية التي تكتنف حياته القصيرة على الأرض.

التنويم المغناطيسي

"من مسمر إلى شاركو. الساتل المغناطيسي. نوبة الهستريا. النيدلة. التنور. التأثير بالوساطة. رشيه. لوسيكور. فواساك. إهيدنهام. العجائب."

قلنا في ختام الفصل السابق إن من أغرب الطرف حكاية الإنسان في عراكه الطويل مع هذا المجهول الذي يحيط به، ومحاولته كشف أسرار الكون وفض مغالقه ليروي ما به من ظمأ إلى الروح وظمأ إلى المادة ويخفف ثقل ما يعانيه من جهل وألم ومرض وفناء.

أتى عليه حين من الدهر وهو يتخبط في مجاهل الشعوذة والسحر والكيمياء، ثم تفتقت فكرته عن وجود سائل روحاني يربط الأرض بالسماء وكان براسلس السويسري أول من افتتح هذا الدور ثم تلاه هلمون البلجيكي وفلود الإنجليزي فإذا الكون في نظرهم مجموعة قوى حيوية والإنسان جزء من هذا الكون يمر فيه السائل الكوكبي الذي يصرف أسرار الكائنات فإذا استطاع أحد الناس التقاط هذا السائل وإدخاله جسم المريض فقد ظفر بالدواء العجيب الصادر عن القوى الحيوية التي تغذيها الأفلاك.

وكان لا بد من رجل له الجرأة الكافية ليقول للناس أنا من الذين يستطيعون التقاط هذا السائل الشافي، ومن يدي ولساني تنبعث قوة فلكية تخفف الأوجاع وتشفى من الأمراض.

هذا الرجل هو مسمر لاهوتي قديم ذو إلمام بالطب والفلك والموسيقى. لقد بدأ عمله في ڤيينا فتوصل إلى شفاء أحد أعيان المجر من ألم قديم في العنق، وإعادة البصر إلى وصيفة الإمبراطورة ماري تريز (لأن الهستريا تذهب بالبصر أحياناً) حتى إذا عزم على الشخوص إلى باريس كانت شهرته قد سبقته إليها.

وكان مسمر يستعمل بادئ ذي بدء حجر المغناطيس، غير أن تكاثر المرضى عليه وازدحام القصاد في بابه دفعاه إلى البحث عن طريقة تمكنه من معالجة العدد الكبير في الوقت القصير. فاتخذ قضيباً يحمله قوى مغناطيسية ويعالج به من ٣٠ إلى ١٠٠ مريض في آن واحد. فكان المرضى يشعرون بالسائل الشافي ينتقل من القضيب إلى أجسادهم فيخفف من آلامهم. ثم وجد أن منبع القوى الشافية ليس في القضيب الذي يمسكه بيده بل في اليد ذاتها فصار يكتفي بلمس المريض، واضعاً يده بلطف، ماراً بها من الكتف إلى الذراع، راسماً دائرة حول مكان الوجع ليفصله عن سائر الجسم، وهكذا أحيا عادة الأقدمين من ڤسبازيان إمبراطور روما إلى ملوك القرون المتوسطة ولكنه خلع عليها اسماً علمياً وهو المغناطيسية الحيوانية.

ثم رأى أن اللمس غير ضروري وحسبه أن يريد لنقل السائل الشافي منه إلى العليل فيقول كما كانوا يقولون في عصور السحر والشعوذة "إلى الوراء أيها الألم" فيزول الألم.

وكان يعتقد كالذين تقدموه أن النوم المجلوب يشفى من الألم. وأنه في

الإمكان جلب النوم بواسطة السائل الشافي، فكان يدخل قواه الفلكية جسم المريض حتى تنتابه الرعشة والتشنج. وكان المرضى يصطفون حول القضيب الممغنط أو يضطجعون ليتلقوا لمس يده، أو يصغون إلى كلماته السحرية إلى أن يصيبهم التشنج فيناموا ويستيقظوا بعد قليل وقد عوفوا.

وبلغت شهرة مسمر الأوج ولا سيما بين طبقة النبلاء حتى إن ماري أنطوانيت والبرنس دي كوندي وغيرهما كانوا أسعد الناس عندما يفوزون بمقابلته. وكان "لافايت" من أعظم المعجبين به حتى إنه لدى وصوله إلى أمريكا صاح بواشنطن وهو لا يزال على ظهر الباخرة أنه جاء يحمل إلى الأمريكان هدية غير السلاح وأثمن من السلاح.

وكان عامة الشعب يتوافدون على منزله في مونمارتر منذ الفجر وينتظرون خروجه ليستفيدوا ولو بلمس أطراف ثوبه.

ورأى مسمر أن وقته يضيق عن إرضاء منتجعيه العديدين فصنع علبة من خشب فيها صفان من القوارير المملوءة بالسائل المغناطيسي وفي وسطها قضيب من الفولاذ له أعواد متحركة يمكن توجيه أطرافها نحو المواضع المريضة من الجسم. فكان المرضى يصطفون حول هذه العلبة في صمت وخشوع ويمتصون القوى المغناطيسية المنبعثة منها على تلك الأعواد. وذاعت هذه الطريقة وعظم الإقبال عليها حتى كان النبلاء والأعيان يحفظون مواضعهم من حولها قبل ميعادهم بأيام. وكانوا في ولائمهم يدعون ضيوفهم إلى حضور جلسة حول هذه العلبة بدلاً من الذهاب بهم إلى الأوبرا.

ثم وجد مسمر أن العلبة غير كافية لأن عدد قاصديه كان يزداد ازدياداً هائلا فترك بيته وخرج إلى الفضاء وما تقدمه له الطبيعة من شتى الأهداف، وصار يمغنط أحواض المياه، والعشب والأشجار والحدائق العمومية والغابات فكنت ترى الجماهير يغطسون في مياه البرك أو يتمددون على العشب أو يتسلقون الشجر ويتأرجحون في الأغصان منتظرين ساعة الشفاء.

وكلما تفنن مسمر في اختراع طريقة تسهل له استعمال علاجه الواسع وجد نفسه مقصراً حتى انتهى به الأمر إلى استعمال المرآة ينقل إليها السائل الشافي فكان الناس يمرون من أمام المرائي تعكس لهم وجوههم الكالحة وتجود عليهم بالعافية.

من القضيب إلى اليد إلى الكلام إلى العلبة الشهيرة إلى الأحواض والعشب والأشجار إلى المرائي كل هذا لم يسهل لمسمر مهمته إزاء الشهرة البعيدة وإقبال الناس عليه إقبالاً يفوق التصور فتفتقت له الحيلة عن وسيلة جديدة فقال إن الأصوات الخارجة من آلات الموسيقى الممغنطة تكفي لإزالة الألم فصارت الحفلات الموسيقية تقام في كل ناحية من باريس يشهدها القاصي والداني والكبير والصغير.

وبديهي بعد هذا كله أن يصبح مسمر وافر الغنى، ومما زاد في ثروته أن طبقة الأغنياء كانت تأنف الاختلاط بسائر الشعب فكان يبيعها علبة بأثمان باهظة نحو المئة الصفراء لكل علبة حتى إن مدام دي باري المعجبة به كل الإعجاب كانت تشكو من طمعه وغلاء علاجه.

وهكذا كان في وسع مسمر أن يكون في كل مكان كما في قصص الجان. ولم يكتف بما وصل إليه، بل أراد أن يحفظ السلطان لنفسه فادعى أنه لا مندوحة عن تجديد المغناطيسية حيناً بعد حين في العلب والأحواض والأشجار وغير ذلك مما أقلق بال مريديه وأشياعه فراحوا يتساءلون ماذا يحل بالناس عندما يقبض الله مسمر إليه. وتسرب هذا القلق إلى الحكومة نفسها فسعت إلى إقناعه بتلقين سره تلاميذه كي لا تحرم الذرية من منافعه وعرضت عليه مقابل ذلك أربعين ألفاً من الذهب كل عام.

ولكن ما هي الأربعون ألف دينار إزاء ما كان يربحه هذا الساحر؟ إن غاية مناه بعد ما أثرى أن يكون له مقام علمي وشهرة خالدة فاشترط على الحكومة أن يعترف به المجمع العلمي، وهذا ما عز الظفر به حتى اضطر لويس السادس عشر إلى التدخل والتوسط فطلب من المجمع امتحان طريقة مسمر علماً وعملا.

وعليه اجتمع أعضاء المجمع وبينهم كليوتين مخترع المقصلة التي أطاحت فيما بعد برأس لويس السادس عشر، ولافوازيه أشهر كيماوي العصر الذي كتب له أن يلقى حتفه بها كذلك. وبنيامين فرنكلين مخترع الشاري أي قضيب الصاعقة فأسفرت بحوثهم عن أن المسمرية طريقة غير علمية ولا يمكن الاعتراف بها.

غضب مسمر عند ذلك غضباً شديداً هدد بمغادرة باريس فهلع لهذا النبأ قلب ماري أنطوانيت وراحت تحاول بشتى الوسائل إرضاءه على غير طائل، غير أن بعضاً من أشياعه تطوع للاكتتاب بمبلغ عظيم لإنشاء مجمع

مسمري يقف في وجه المجمع العلمي.

جرى كل هذا والثورة الفرنسية على الأبواب فجاء عهد الإرهاب وأقام حداً للجدل وذهب الكثير من المكبرين لمسمر إلى المشنقة واضطر هو إلى الفرار بأسرع ما يمكن فقصد إلى فيينا مطلع ولكن حكومة الإمبراطور اعتقلته خوفاً من أن يكون رسول الثورة ولم يطلق سراحه إلا بعد شهرين فتولاه اليأس وعاد إلى مسقط رأسه في مرسبورغ. وكانت الحوادث تتعاقب بسرعة هائلة لم تترك للناس أن يفكروا بأحد حتى ولو كان مسمر الساحر.

وهكذا هبط هذا الرجل العجيب من ذروة مجده كما صعد إليها، وطوى العشرين الباقية من سنه في ظلمة النسيان قبل أن تغمره ظلمة الموت، وقديماً قال الشاعر:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

* * *

ثم جاء المركيز "بويسكور" وكان رجلا فاضلاً محباً للإنسانية عفيفاً في جمع المال كريماً في بذله فارتأى أن يمغنط شجرة كبيرة يأوي إلى ظلها المتعبون. وخيل إليه أن النيدلة وهي ما يقال له في الفرنسية Sommandulisne، تفيد في كشف الغيب وأن النيدلان قد يساعد على تشخيص المرض ووصف العلاج.

وفي عام ١٨٢٠ طلب "فواساك"، من المجمع الطبي أن يبدي رأيه بعد الدرس والتحقيق في حوادث النيدلة وما يعزى إليها من النبوءات

وتشخيص الأمراض والقراءة من خلال الحجب فكانت النتيجة على عكس ما أمل، وأقرت الندوة الطبية أن المغناطيسية وهم وكل ما ينسب إليها خزعبلات[1].

ولم يفكر أحد برسم خطة علمية للدرس والتنقيب يمكن التوصل بها إلى إماطة اللثام عما في هذه الحوادث الغريبة من حقيقة. وفي تلك الحقبة من الزمن كان براد **(Braid)** أحد الأطباء في مانشستر قد بدأ أبحاثه العلمية التي أدت إلى اكتشاف المغناطيسية الاختبارية بعد أن أظهر الراهب "فاريا" فساد الرأي السائلي، ووصف حالة الهذيان وسدر الإحساس **Hellucuiation sensorielles** وأثبت الاختبار إمكان إيحاء الشعور بالشيء والحس به في حالة النوم[2].

وذكر براد الخدر الموضعي أو الفلاجة **anhestesie** والتشنجات التي تصيب المهسترين، ولم يلبث أن تأكد أن الرأي القائل بوجود سائل مغناطيسي لا يرتكز على أساس.

ولم يمض عشرون سنة على هذا التجدد حتى بدأ الجراح أزام من بوردو يفكر في استعمال التنويم المغناطيسي في الجراحة.

ولكن كل هذا كان محاولات ضئيلة، والحركة العلمية الكبرى لم تطغ

---

(١) ندل الشيء أي خطفه بسرعة. والنائم الذي يقوم ويمشي دون أن يدري أو يشعر هو كالمخطوف بقوة غريبة من اللاوعي فكلمة نيدلان في نظري تنطبق عليه كل الانطباق.

(٢) سدر البعير تحير بصره لغبا. والمعرى سبق ونقل الكلمة إلى التحير العقلي. ونحن ننقلها إلى الإحساس بمعنى تحيره بالتخيلات الهسترية.

على سدودها بعد، والأطباء في حذر من ولوج هذه المباحث الجديدة إشفاقاً على شهرتهم أن تتصدع. إلى أن ظهر شاركو في فرنسا وهيدنهام في ألمانيا.

رأى شاركو عند درسه الهستريا أن السبب في قصور المجامع العلمية السابقة عن الوصول إلى الحقيقة الكامنة وراء حوادث التنويم هو انصرافهم إلى درس الحوادث الخفية الجذابة الغريبة قبل غيرها، فلم تكن لهم خطة منظمة، وكان تسرعهم في الوصول إلى الحقيقة يعوقهم سنوات عن بلوغها. ولهذا كان يقول لنبدأ أولاً بالأشياء البسيطة السهلة التحليل ولا نتقدم إلا بعد أن نثبت أقدامنا ولنترك جانباً ما يسمونه حوادث المغناطيسية والتنبؤ بالمستقبل والنظر المضاعف وانتقال الأفكار. ولنكن على حذر من التمويه وخداع المهسترين الذين يهمهم أن يلفتوا إليهم الأنظار ويحملوا الناس على الاهتمام بهم والتحدث عنهم، ويجب أن لا نندفع بالحماسة بل نتئد في السير فلا أحد يجبرنا على الإسراع، وما يفوتنا اليوم يصل إليه أحفادنا في الغد.

أليس جديراً بالإعجاب هذا الصبر من العالم وهذا التجرد في خدمة العلم والحقيقة المقدسة؟

لقد عرف شاركو الخطة المثلى في درس التنويم وما يتفرع منه فانتهجها وجاءت النتائج مؤيدة صواب فكرته.

ورأى شاركو وجهاً للشبه بين هذه الأعراض وما يروى عن السحرة والمشيطنين فعمد إلى البحث في الأوراق والكتب بمعاونة تلاميذه،

والتفتيش في الدعاوى القديمة التي كانت نهايتها التعذيب والحرق بالنار، فوجد هذه الأعراض مذكورة بكاملها كأنها صورة طبق الأصل لما كانوا يعتقدونه من الأدلة القاطعة على دخول الشيطان جسم الإنسان.

وهكذا فإن الخدر الجزئي كان يسمى "طابع الشيطان" ويكفي وحده ليقود إلى المحرقة. وعدم الإحساس والصمت لدى تعذيب الاستنطاق هو كذلك من صنع الشيطان.

وتشنج الوجه إن هو إلا تكشير اللعين عندما يأتي وينظر وجهه فيه كما في المرآة.

والقفز في الهواء من عمل بعلزبول الذي يرفع الجسم عن الأرض.

والأصابع الثلاثة الممدودة اعتراف من إبليس بالثالوث الأقدس.

والشعور بالكرة الصاعدة من الصدر إلى الزلعوم عمل من أعمال السحر.

والزحف على البطن يدل على موقف الشيطان عندما يتغلب عليه التعزيم لإخراجه.

وهيئة المصلوب استهزاء بالموت المقدس.

والشيطان المتذكر أو المتأنث هو تقص المهسترات في السالباتريار من الأحلام عن اعتداء طبيب أو تلميذ إلى آخره.

فإذا بالمشيطنين الذين كانوا يحرقون ولا ذنب لهم غير هذه الأعراض والدلائل فئة مسكينة مصابة بهذا الداء العصبي الذي يقال له اليوم هستريا.

هذا ما وصل إليه شاركو في دروسه عن الهستريا والتنويم ولكن ذلك لم يمنع هذه العقائد أن تظل راسخة في بعض الأذهان ولا سيما ما تعلق منها بالتأثير عن بعد أو بالواسطة، وهو ما يقال له بالفرنسية **Envoutement** أو الشعور عن بعد، أي الاستشفاف **télépathie**.

أما التأثير بالواسطة فيكون على النحو التالي :

إذا أبغضت رجلاً إلى حد أن تتمنى الموت له ولكن لا إلى حد أن تخاطر بحياتك فإنك تصنع أو تكلف من يصنع لك صورته من الشمع، ولا بأس إذا لم تأت الصورة على ما يرام في مشابهتها للأصل فإن الشيطان يتسامح في ذلك ولا يتشدد فيه. ثم تضع على هذه الصورة منديلاً تسرقه من عدوك فتنقل به الإحساس من جسم العدو إلى الصورة. وبعد ذلك فكل وخزة إبرة أو ضربة أو تهشم للصورة يكون فيها العذاب والموت الشنيع للرجل الذي تكره.

هذه العملية كان عقابها في الماضي النار، وكم ذهب من الناس ضحية لها لأقل تهمة تسند إليهم دون دليل أو برهان، ومن الصعب نزع هذه العقيدة المتأصلة في النفوس، حتى إن هويسمن نفسه ظل تحت سيطرتها فادعى أنه عرضة الضربات سائلية أي ناتجة عن سائل يغزوه به عدوه ليلاً حتى أن الهر الذي كان يربيه كان يشعر في الوقت عينه بمثل تلك الهزات.

ولا غرو إذا كان هويسمن وهو أستاذ المدرسة الواقعية من المؤمنين بهذا فإن قسماً كبيراً من الأدب في أواخر القرن الماضي كان متجهاً نحو الصوفية والروحانية.

وقد أظهر العلم الحديث اهتمامه بهذه الحوادث قصد دحضها لا إثباتها، وكان من مدير مدرسة البولينكتيك في فرنسا أن أجرى تجارب في هذا الشأن فنجح فيها على مسافات قصيرة، أي أن الرقية تفعل لا من بلد إلى بلد بل على بعد ثلاثة أمتار بالأكثر وإليك البيان:

تنوم المريضة ويخرج منها الإحساس أي يجعل جلدها لا يحس وينتقل الإحساس إلى طبقة من الهواء على بعد مترين منها، فإذا قرص الهواء أو دغدغ على هذا البعد تصيح المنومة أو يأخذها الضحك كما لو كانت الدغدغة عليها.

وإذا حملت حساستها بدلاً من الهواء كأساً من الماء أو دمية من الشمع فيكفي لمس الكأس لتشعر المريضة في جسدها بهذا اللمس ويكفي الشد في شعر الدمية لتحس المريضة بالشد في شعر رأسها. وإذا ضربت الدمية تتألم المريضة، ومن الألم إلى الموت عند تحطيم الدمية لا يبقى إلا خطوة يخطوها أولئك الذين يحملهم الخيال إلى أبعد ما يمكن.

وأجريت التجارب أيضاً بالعقاقير فيسمم بها العدو عن بعد دون أن يستطيع أذكى الأطباء أن يجد أثراً للسم في أحشائه.

تلك كانت حالة العلم فيما يختص بهذه الشؤون عندما أراد "هارث" أحد أطباء الإنكليز التحقيق فيها فأجرى سلسلة من التجارب كما سترى:

* * *

ينقل الإحساس من الجسم إلى الدمية فتصبح الدمية وحدها قادرة على العمل السحري المنشود بالتأثير عن بعد، أي أنك إذا قرصت الدمية

أو شددت شعرها أو غير ذلك فالمرأة المنومة تنويماً خفيفاً تشعر بالقرص أو الشد كما لو كان ذلك مباشرة ولكن خذ من جرابك أو (عيبة) ثوبك دمية أخرى لا تحمل السائل المغناطيسي ولا حساسية المرأة وضعها سراً مكان الأولى دون أن تشعر المرأة بذلك التبديل، وأفعل بها ما فعلت بتلك فإن كل حركة تأتي بها على هذه الدمية الجديدة تنتقل إلى المرأة ويبقى الشعور بالألم كما هو كأن لم يكن هناك تبديل ما.

وهكذا قل بكأس الماء أو الدواء مما يدلك على أن الأشخاص الذين أجريت عليهم مثل هذا التجارب يتصورون أي يتخذون لهم صورة غير صورتهم فيخفون الحقيقة وهذا التصور(٣) من صفات الهستريا، وأن التجارب السابقة لم تكن من الدقة على ما يرام أما الشعور عن بعد فعلى الرغم من كثرة أنصاره لا يزال موضع الشك عند جمهرة من كبار الأطباء. وإليك البيان عما يقصد بهذه الكلمة المأخوذة عن اليونانية **Télépathie** والتي يمكن أن نسميها مع الجاحظ الاستشفاف أو التنور كما قال امرؤ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

وقد يتعاهد صاحبان مثلا في ساعة من ساعات الهزل أن من يموت قبل الآخر يزور صاحبه الحي، فيستيقظ أحدهما ذات ليلة ويرى أمام سريره وجه صديقه وقد علاه الاصفرار فيقص الرؤيا على أصحابه فيضحكون منه ولكن لا يمضي قليل من الوقت حتى يأتيه نعي هذا

---

(٣) نعني بكلمة التصور ما يقال له بالفرنسية (Simulation).

الصديق وقد قضى نحبه في الليلة عينها التي زاره طيفه فيها. ومثل هذه أحاديث المائدة المتحركة وظهور الأشباح لبعض الناس وغير ذلك، وقد ألف فلاماريون الفلكي المشهور كتاباً في هذا الموضوع سماه "المجهول"، وقام أستاذ طائر الصيت هو شارل رشيه بزعامة المذهب الجديد يخدمه بقلمه في مجلة العلوم النفسية.

والطريقة التي يتخذها أصحاب هذا المذهب للحصول على ملاحظات ذات شأن في نظر العلم لدعم نظريتهم واحدة، فهم يطلبون من الناس كافة أن يبعثوا إليهم بكل الحوادث التي تتعلق بالاستشفاف أو التنور مع التفاصيل الدقيقة والحجج المؤيدة ممهورة بتوقيع المرسل وعنوانه، ثم يصار إلى درس هذه الحوادث والتثبت من صحتها على قدر المستطاع بواسطة لجنة مؤلفة من:

الشاعر سولى بريدوم	عضو الندوة الفرنسية – رئيساً
بالمى	أستاذ في كلية الطب. باريس
لويس	أستاذ في كلية الطب. نانسى
شارل رشيه	
الكولونيل رونشاس	مدير البولتكنيك
ماريليه	المحاضر في مدرسة الدروس العليا

تلك أسماء معروفة تدل على أهمية هذه المباحث وتؤمن عدم التلاعب في بيان نتائجها، وقد قال رشيه في مقدمة مجلته: "إنها لا تملأ صفحاتها بالآراء الباطلة والمذاهب المعوجة بل تجمع بصبر جميع الحوادث التي لا تنكر الصعوبة الكبرى في التثبت منها على ما لها من الأهمية. ولا ريب أن

من أعظم الفوائد أن نعرف إذا كان علم الغيب ليس إلا كلمة جوفاء أو إذا كان ثمة قوى عاقلة لا يدركها عقلنا الإنساني وكان في إمكان الفكر أن ينتقل من مكان إلى مكان دون واسطة مادية وفي استطاعة دماغنا أن يدرك حقائق لا تراها العين ولا تسمعها الأذن ولا تنالها حاسة اللمس أو الذوق أو الشم".

وقال رشيه أيضاً: "من المحتمل بل المؤكد أن هناك في الآدمي بقعة واسعة لم يطأها الإنسان بعد، وما نحسبه اليوم ملكاً للمجهول سيصير في الغد حقيقة ملموسة، فإن الكهربائية لم تكن معروفة لثلاثمائة سنة خلت والمغناطيسية الحيوانية هي بنت اليوم" وليس في كلام رشيه هذا خروج عن المنطق ولكن فيه جرأة كبرى أثارت الضجة من حوله واستفزت الكثيرين لمعارضته وذلك لأن رجل العلم كلما تقدم في درس الأمراض العصبية كان أبعد عن الخيال وأقرب إلى الواقع فيخلع عن الحوادث الغامضة حلتها السماوية ويردها إلى مكانها منه.

وقد أفرد الأستاذ "بيتر" في دروسه عن الهستريا والتنويم فصلا للنيدلة **Somnambulisme** شرح فيه حوادثها المدهشة، وأزاح عنها الحجاب الكثيف الذي أعمى الأجيال السابقة وأضلها. وأخرج ترشانوف الأستاذ في جامعة بطرسبورج (بتروغراد) كتاباً عن قراءة الأفكار يرمي إلى الغاية عينها، وبديهي أن تكون هذه المؤلفات على غير ما تريد تلك الفئة من الناس المولعة بالأسرار.

* * *

ولم يكـــن شـــاركو نفســـه عطوفـــاً علـــى الاستشـــفاف أو التنـــور (Télepathie) فكـان يبتسـم ابتسـامة معنويـة كلمـا ذكـروا أمامـه مثـل هـذه الحـوادث وقـد رفـض رئاسـة الجمعيـة السـيكولوجية منـذ اليـوم الـذي أخـذ أصحاب هذا المذهب يحاضرون فيها وإليك وجهة نظره:

"قد يمكن أن يكون وراء هذا كله شيء ما، ولكن لا يهمني في الوقت الحاضر، بل أدع للأجيال الآتية أن تتكفل بحله لأن جيلنا الحاضر لم ينضج له تمام النضج، فالتسرع مضر وقد تبينا ضرره في الزمن الأخير لأنه عاقنا طويلا في معرفة الحقيقة العلمية فيما يختص بالمغناطيس والنيدلة. وإذا كنت قد خطوت في عشرين عاماً خطى واسعة في هذه الطريق لم تعرفها عصور فلأني اتخذت لي خطة قائمة على التأني والصبر والتدقيق مبتدئاً بالأشياء البسيطة، معرضاً عن التوغل في معالجة الأسرار. إن السرعة تزعج العقل الباحث على غير طائل وتؤخر ظهور الحقيقة".

فضلا عن ذلك فإن الطريقة التي اختطها أصحاب هذا المذهب من جمع الملاحظات من هنا ومن هناك وسرد كل ما يقدمه لهم أناس تنقصهم الخبرة وعندهم قابلية التصديق لكل شيء، لا تعد الطريقة المثلى التي تلزمنا الحكمة بإتباعها، على الرغم مما يتخذ فيها من أسباب الحيطة.

ومن الذين كتبوا عن النيدلة وأسهبوا فيها الدكتور "مسنة" أحد أعضاء الندوة الطبية وطبيب السالباترييار، وقد ذكر النيدلة الطبيعية والمجتلبة وروى حادثة مريض حكم عليه ثم برئ بعد فحصه وتنويمه أمام قضاته.

وتختلف حالة النيدلان حسبما يكون مغمض العينين أولاً، فإذا كانت العينان مفتوحتين فإن النيدلة تكون أشبه بالسحر الذي يصيب الثور عندما يلوح له ثواره(٤) باللون الأحمر بعد أن يكون الطعن والركض قد نهكاه فما دام الثور قوياً فمن الصعب الاستيلاء على بصره ولا ينى الثور يلاحقه إلى حد الإعياء فيتعلق نظره حينئذ بالخرقة الحمراء ويتبعها كيفما تحركت أمامه وقد حصر انتباهه فيها وأضاع الرشد فلم يبق من حواس دماغه ما ينبهه إلى الخطر. فهو ينظر إلى الأحمر، وكل ما هو غير الأحمر لا يصل أثره إلى دماغه، وعلى هذا الوجه يسهل الفتك به.

والرجل المسحور على هذا الوجه قد يبلغ أشد حالات السحر كما جرى لمأمور محطة السكة الحديدية وهي حادثة مشهورة، فإن هذا الرجل كان يصاب بالنيدلة وعيناه مفتوحتان فيسحره أحياناً منظر خاتم لماع في أصبع سيدة جاءت تستفهم منه عن موعد سفر القطار، أو صفيحة نحاسية على باب الطبيب أو الفانوس المعلق في مؤخرة المركبة، إلى أن سحر يوماً بلمعان الشمس وتكسر أشعتها على الزجاج فمشى القطار عليه ودهسه.

وإلى جانب هذه الفئة التي يأخذ بلبها نور المصباح ويفصلها عن عالم الحس ويجعلها كالأعمى لا تبصر شيئاً حتى ولا الموت الواقف لها بالمرصاد، فئة أخرى أخف داء كمجانين الحب مثلا الذين ينسون كل شيء ويعمون عن كل خطر لأن بريقاً فتاناً من اللحاظ جذبهم ذات مساء.

---

(٤) الثوار هو القيم على الثور أو المشير له ومثله قول لبيد:

لو يقوم الفيل أو فياله   زل عن مثل مقامي وزحل

ولا يسعني أن أختم هذا التحليل للمباحث الفلسفية الانتقادية التي أثارها شاركو دون أن أقول كلمة عن العجائب ونظر الأطباء إليها. ومعاذ الله أن أريد إغضاب أحد في معتقده ولكن التعمق في درس الأمراض العصبية أتاح لشاركو أن يفسر عدداً كبيراً من الحوادث الغريبة التي كانت من قبل تعد من الأعاجيب. وقد كتب قبل مماته كتاباً عنوانه "الإيمان الشافي" أظهر فيه كيف أن جميع الأديان وجميع الحضارات كانت مسرحاً لعجائب متشابهة وكيف أن هيكل إسكولاب في أثينا القديمة يشبه هياكل اليوم. وذكر كيف رأى في سفره في أحد الهياكل قوالب مصنوعة تشبه تمام الشبه تشنج المهسترات، فالوقت والمكان يتبدلان والفكر البشري هو هو يطلب تدخل قوى مجهولة لأنه في حاجة إلى الأمل.

وقد أوضح في كتابه "المشيطنون إزاء الفن" الذي اشترك في تأليفه بول رشيه أن الصور والنقوش والرسوم التي صنعت لتخليد ذكرى بعض العجائب لا ترينا إلا حالة النوبة التشنجية عند المهسترين. وكل ما يرونه قديماً وحديثاً من حوادث الشلل والتشنج وفقدان البصر التي تشفى فجأة إن هو إلا من أعراض الهستريا حتى إن بعض حوادث الإصابات في النخاع الشوكي قد تكون مسببة من الهستريا وربما ضل في تشخيصها أمهر الأطباء.

وعلى الجملة فإن شاركو لا يعتقد بالعجائب ولكنه لا يحرم زيارة الأماكن المقدسة والحج إليها بل يباركها لما تحييه من الأمل في صدر الإنسان، أما العجائب فلا تغير شيئاً في مجرى الكواكب ولا تقدم أو تؤخر في الشرائع الأزلية، ولكنها تعمل عملها في ظلمات الباثولوجيا الداخلية.

الأطباء والقضاء

التنويم والعدالة. مسئولية المجرمين. تولد فكرة العدل والظلم. قايين وهابيل. الإرادة الحرة ومسرح النفس. لومبروزو.

هذه الأبحاث عن الهستريا والتنويم التي قام بها شاركو وتلاميذه بتلك الدقة المعروفة والإخلاص في خدمة الحقيقة هل يمكن استخدامها في العدالة بالدخول إلى أعماق نفس المجرم أو بالأحرى المتهم لاستخراج الحقيقة منها فيما دُفع إلى القضاء من أجله؟.

قد تكون الفائدة من هذه المباحث ضيقة النطاق غير أنها تسهل لنا فهم الصلات التي تربط الطبيب المتوفر على درس الأمراض العصبية بعدالة الأحكام.

ولنحصر بحثنا أولاً فيما يلي: إزاء متهم ينكر التهمة الموجهة إليه، ويلح في الإنكار، هل يجوز لقاضي التحقيق أن يستعين بالطبيب لتنويمه؟ وفي حالة النوم المجلوب الذي يقيد الإرادة هل يمكن تصديق المتهم واعتبار ما يدلى به من الاعترافات صادقاً بعدما كان كل ما يقوله في حالة الصحو كذباً؟

لا ريب أنه إذا كان ثمت ذريعة أكيدة للوصول إلى الحقيقة فلا عذر للقضاء في إهمالها، ولا سيما لأن الشك واليقين يتنازعانهم في أغلب الأحيان. نعم إنها ثورة على التقاليد المتبعة ولكنها نافعة في خدمة العدل

فلنسمع ما يقوله علماء القانون:

(أ) إن الذين يؤمنون بالتنويم يعتقدون أن للمنون سلطاناً يضع النائم تحت رحمته فكيف يمكن والحالة هذه تصديق ما يقوله هذا الأخير ما دام جوابه صدى لا اعترافاً.

(أستاذ الحق الإجرامي في كلية باريس)

(ب) لا أظن أنه يمكن السماح لقاضي التحقيق بالاستعانة بالطبيب لتنويم المتهمين وحل عقدة لسانهم على الرغم منهم. لأنه ليس من الثابت أن الحقيقة تخرج من أفواههم بهذه الطريقة، فكل الناس ليسوا في حالة واحدة من الاستعداد لقبول النوم، فضلاً عما يساور النائم من التخيلات. ثم إن فريقاً من الناس يقاوم بشدة إرادة المنوم ويحاول خداعه فوق ذلك، ولا أتصور كيف يمكن الحكم على متهم أو تبرئته بالاستناد إلى ما يقوله في حالة نوم مصطنع أو حالة نفسية مريضة. وإني أعتبر هذه الطريقة غير شرعية ولو كان من ورائها استجلاء الحقيقة. طريقة تختلف عن طرق التعذيب في القرون الوسطى لأنها لا تستعمل الآلة واسطة للاعتراف ولكنها تشبهها من جهة أخرى لأن الاعتراف قهري لا أثر للحرية فيه.

(دجارون المدعى العام في محكمة التمييز وعضو الأنستيتو)

(ج) لا أظن أنه سيكون للتنويم شأن عظيم في حياتنا القضائية لأن التأكد من صدق المتهم وإخلاصه صعب جداً. وقد يحدث لكثير من

المتهمين الذين نحاول انتزاع الحقيقة من أفواههم أنهم في حالة النوم الطبيعي يحلمون ويتكلمون بصوت مسموع، وقد يكون هناك أسرار يفشونها فلا حق لنا أن نعتمد هذا الكلام الصادر عنهم بغير إرادتهم ونأخذهم غدراً لأن المتهم يجب أن يكون حراً في دفاعه.

وفي حالة النوم الطبيعي أو المجلوب قد يكون كل ما يقولونه بعيداً عن الصدق فما أعظم الخطر إذا عم استعمال هذه الطريقة بين يدى أناس لا خبرة لهم أو لا ثقة بهم.

(جيلو قاضي التحقيق وعضو ندوة العلوم)

هذا ما يقوله علماء القانون ولا يختلف الأطباء عنهم من هذا القبيل وقد أجمع المشهورون منهم وعلى الأخص شاركو الذي يعد أباً للتنويم، والأساتذة بروادل وجيل دلاتورت والأستاذ مونه الاختصاصي في أمراض العقل والذي أتيح له التنويم أمام القضاة، على القول إن الالتجاء إلى التنويم للحصول على اعتراف من المتهم لا يمكن الحصول عليه بغير ذلك هو رجوع الإنسان القهقرى إلى العصور المتوسطة أيام كان ديوان التفتيش يكلف الطبيب أو الجراح بفحص من كانوا يحسبونهم مشيطنين ليرى إذا كانوا لا يحملون في أبدانهم "طابع الشيطان". في ذلك الزمان كان بعض الأطباء قساة القلوب إلى حد يفوق التصور كالجراح "مانورى" الذي عذب "أوربان غرانديه" وكانوا عندما يحكمون بالموت من أجل السحر يشوهون سحنة المحكوم عليه ويقتلعون الأظافر وشعر الحاجبين ليخلعوا عليه حلة القبح والشناعة. فلما قضى على غرانديه جيء بالجراح فورنو من منزله ليقوم بهذا التشويه.

وكانوا يلتمسون إطالة التعذيب بكل الوسائل فيجبرون الجراح على الحضور بنفسه للإشراف عليه وتفنينه فلا يقضى سريعاً على المتهم.

وخلاصة القول أن تنويم الإنسان ونزع حريته لحمله على الاعتراف عمل شائن ولا أحد من قضاة اليوم يقبل به حتى ولو احتيج إلى ذلك كما في حوادث السكك الحديدية فكثيراً ما تقام الدعوى على الشركة ويدعي مقيموها أنهم أصيبوا بضرر في صحتهم أو عطل في أجسامهم والشركة لا تصدق ذلك وتطلب من الطبيب تفني مزاعمهم، وعند الطبيب واسطة لا تخطئ وهي التنويم بالكلورفورم غير أنه لا يستعمل هذه الواسطة إلا برضى من يطلب وتنويمه ومن البديهي أن هذا الرضى لا يحصل عليه.

وهناك خطر آخر يجب الحذر منه فقد يكون بين مرضى الأعصاب الذين يقبلون أن يناموا مخادعون يحاولون عش الطبيب فيتفوهون بأشياء لا صحة لها ولا غاية إلا أن تثير الشبهات ضد آخرين وتزيد في تضليل المحققين.

على أن التنويم المغناطيسي قد أدى إلى العدالة خدمات لا تنكر ولكنها حوادث خاصة محدودة كما سترى:

قد يكمن المتهم مصاباً ببعض الاضطرابات في الجهاز العصبي فإذا أدرك الطبيب ذلك خف عليه أن يفتش عن الصلة الممكن وجودها بين هذه الأعراض والجناية أو الجنحة التي ارتكبها حتى إذا استوثق من ذلك أمكنه بالامتحان أن يظهر للقضاء براءة المتهم كما جرى في الحادثتين التاليتين:

سرق لإحدى السيدات بعض المجوهرات فاتهمت الخادمة لأنها كانت وحدها تحمل مفاتيح الخزانة، فأودعت في السجن دون أن يكون ثمت

برهان قاطع على صحة دعوى السيدة لأن الفتاة كانت تنكر كل الإنكار ما اتهمت به، ولكن راهبة السجن المشرفة عليها لاحظت منها أشياء غير طبيعية وأنها معرضة حيناً بعد حين لحوادث النيدلة أي القيام في النوم والإتيان بحركات وأعمال لم تكن تشعر بها ولا تتذكرها في اليقظة فجاء الطبيب ونومها فأقرت الفتاة ودلت على المكان الذي خبأت فيه المجوهرات ثم استيقظت فعادت إلى الإنكار بكل ما لها من قوة ويقين فلم يكن من الصعب تبيين الحقيقة، وأن الفتاة في حالتها "الثانية" لم تكن مسئولة عما تعمل.

وأقيمت دعوى على رجل مشهود له بحسن الأخلاق بتهمة الاستهتار وقلة الحياء **Attentant à la pendeur** ولكن الطبيب الذي وكل إليه فحصه وجد عنده اضطراباً عصبياً كان يسبب له حالة ثانية **Etat Second** يظهر فيها بغيره مظهره الطبيعي، وكان التنويم أحسن وسيلة لإيجاد هذه الحالة الثانية التي كان يبدو فيها كأنه رجل آخر يختلف كل الاختلاف عن الرجل الأول.

وعلى الجملة فإن ما أجمع عليه علماء الشرع والطب أن التنويم المغناطيسي لا يجوز استعماله في القضاء لحمل المتهم على الاعتراف بذنبه، فإن في ذلك تقييداً لحرية الإنسان في الدفاع عن نفسه كما أن فيه تضليلاً للمحققين في كثير من الأحيان كما سبق فبينا. وأما إذا كان المقصود من التنويم إظهار الحق لتبرئة المتهم فهو مفيد ولازم.

* * *

ليس التنويم المجال الوحيد الذي يمكن الطبيب فيه أن يساعد القضاء

بل هناك حوادث الإجرام العديدة، وكثيراً ما أقلق القضاة تدخل الطبيب فيها، وكلما قال الطبيب الشرعي برفع المسئولية عن القاتل أو بتخفيفها قامت قيامة الكتاب على العلم الحديث الذي يريد أن يجرد العدالة من سلاحها ويزعزع نظم المجتمع الإنساني. والعامة الذين يحكمون العاطفة بدلاً من العقل يصعب عليهم إزاء بعض الحوادث التي تنفر منها النفوس وتقشعر لها الأبدان أن يرضوا بحكم الأطباء الشرعيين الرامي إلى تخفيف المسئولية، فما تكون هذه المسئولية التي نريد إنكارها في حين أن كل ما فينا ويصرخ طالباً الانتقام؟

نعم إن اعتبار المجرمين كالمرضى ونفي الإرادة الحرة عنهم معناه الإعراض عن القصاص واستعمال العلاج بدلاً منه، وفي هذا من الغرابة ما فيه إذا رأينا البون النازح والفرق الفاضح بين مقتل رجل بريء ومعالجة قاتلة الماء ...

لا ريب أن الطب الشرعي قد بلغ درجة قصوى من الارتقاء، وفي وسعه أن يكون مناراً للقضاء وواسطة لمعرفة الجريمة وتحديد تاريخ وقوعها وطبيعتها ومختلف أطوارها ولكن ما شأنه للتدخل في الجرائم الكبرى وما فضيلة هذا الانتصار الذي يحرزه عندما يكتشف أن هذا القاتل ابن لسكير مدمن على الخمر، وأن أخاه مصاب بداء الصرع؟ إنه بذلك يجرد المدعى العام من سلاحه ويقلم أظافر العقاب الواجب، ويحول دون مدافعة المجتمع عن نفسه وكل ذلك من أجل عواطف إنسانية في غير محلها كان الأولى أن نخص بها في الأول أهل الصلاح المهددين في سلامتهم وراحتهم ليل نهار.

هذا اعتراض وجيه يستحق أن نجيب عليه. الأطباء في الغالب أبعد الناس عن الخيال والأحلام من الوجهة الإنسانية وهم يعرفون حق المجتمع في الدفاع عن نفسه ضد كل معتد ومجرم، وكلهم على اتفاق للتمييز بين المسئولية الأدبية والمسئولية الشرعية، بين عقيدة علمية وحاجة طبيعية لحماية الناس من بعض الناس. ويعرفون أن القتل أو الانتحار لا يمكن أن ينجم عن حالة طبيعية في النفس أو العقل ولا يمكن من الوجهة الفلسفية أن يجعل المرء مسئولاً عن آفات الدماغ ووظائفه أكثر مما هو مسئول عن اختلال وظائف القلب والرئتين مع هذا الفرق أن المصاب مثلاً باحتقان في الصدر لا يخيف في حين أن الشقي المندفع بأهوائه قد يؤذي غيره في ماله وفي حياته.

قلما نجد اليوم بين الفلاسفة والعلماء من يقول بالإرادة الحرة كما كان يفهما الأقدمون فالأثيم والمجرم يحسبان من المرضى لأن إرادتهم أضعف من أن تكبح جماح أهوائهم أو تعصي نفسهم الأمارة بالسوء. وأكثر المجرمين محكوم عليهم بالوراثة والبيئة أن يكونوا كذلك فهم من سلالة المصابين بالصرع والمبتلين بالزهري والمدمنين الخمر، يعيشون في جهول للخير واستعداد للشر المعدي، وليس في هذا كله ما يسمح لهم أن يختاروا طرق الفضيلة بملء حرية الاختيار، وقد ظهر بالإحصاء أن قسماً كبيراً من المحكوم عليهم أحكاماً قاسية يعيشون كالمرضى وكل يوم يشهد الباحث انتقال المجانين من السجون إلى المستشفيات. كل هذا يدعونا إلى الاستنتاج أن حلة الماضي في جهازه السيكولوجي أصبحت بالية، ولا بأس بهذا الاستنتاج ما دمنا عملياً نقول بحماية المجتمع.

وهذا يبدو اختلاف النظر بين الأطباء والقضاة، فالقاضي يريد أن يحكم فيعاقب المجرم على نيته التي كانت للأذى ولأنه جار بملء حريته عن قصد السبيل. هذه مهمته اليوم كما كانت بالأمس وفي كل أزمنة التاريخ. هو يؤمن برسالته السامية ويعتقد أنه يستطيع سبر أغوار النفس وإماطة اللثام عن النيات الكامنة الغامضة دون الحاجة إلى معرفة أسرار الدماغ ووظائفه لأن فكرة العدالة في نظره هابطة إلينا من أعالي السماء.

والواقع أن فكرة العدالة لم تحلم يوماً بهذا النسب الرفيع وأصلها دون ذلك. عرف "لتره" العدالة بأنها حاجتنا إلى التوازن ولكن ما نعرفه اليوم من وظائف الدماغ يسمح لنا أن نتكلم عنها بأوفى ما يكون من الدقة. وللبيان أرجع بالقارئ إلى أسطورة قايين وهابيل.

في تلك الأيام كان الجهاز العصبي سليماً لم تفعل به بعد المؤثرات الخارجية، وكان بسيطاً في تعبيره الذي نسميه اليوم رد الفعل على أنه في الزمن الحاضر لم نزل مثل الآلة نحوّل الإحساسات التي يستقبلها الدماغ بواسطة أعصاب الحس إلى حركة وعمل.

عندما ضرب قايين هابيل أجاب هذا بالمثل وحول شعوره إلى حركة، ولكن قايين رد له الضربة، وبما أنه أقوى وأشد لم يترك لهابيل وسيلة للدفاع فوقع هذا على الأرض مهشماً ولا سبيل إلى الانتقام على أنه قد شعر بألم الضربة وهي اهتزاز شديد في الدماغ لم يستطع تحويله إلى عمل كما وهي اهتزاز شديد في الدماغ لم يستطع تحويله إلى عمل كما هي العادة في كل شعور يعتريه. فرد الفعل الذي هو تعبير الدماغ عصبياً عن شعوره وقف

عن هابيل دون الظهور وانقطع التوازن. وهذه الغصّة التي انتابته لعجزه عن الانتقام، هذا الصوت الخفي الذي كان يقول له: مكانك أيها المسكين، في حين كانت كل جوانحه تدعوه إلى الحركة، هو مبدأ فكرة الظلم التي سبقت فكرة العدالة في الوجود. ولم تنبت فكرة العدالة إلا بعد ذلك عندما وجد مظلوم مقهور عاجز عن الدفاع أن خصمه القوي قد صرعه رجل آخر أو افترسه وحش أو أهوى عليه صخر فسحقه فقال في نفسه لقد نال ما يستحقه فتمثلت في رأسه فكرة العدالة متجسدة في المنقذ المنتقم.

ثم استحكمت هذه الفكرة بمرور الزمن عندما ارتقى الإنسان في معارج العمران، وأصبح صاحب ملك ألا أن بدايتها كانت بطريق سلبي أي كما قلنا بظهور فكرة الظلم أولاً.

هذا هو أصل العدالة على ما أظن وكم جنحنا بها عن الصورة الشعرية التي تمثلها لنا آتية على أجنحة الحمائم العلوية.

وفي الواقع أن العدالة في المجتمع الحاضر هي دفاع وانتقام معاً وكلما شهدنا اعتداء فظيعاً تحركت بنا سورة الغضب والانتقام على الرغم من كل رقينا لأننا نخاف أن يكرر فنكون بعض ضحاياه.

فمهمة القضاء هي أمان وجزاء وهذا أمر إنساني لا يحتمل الشك ولا يبعث على العجب، غير أني أظن أنه من الأجدر بالعصر الذي نحن فيه أن نترك عاطفة الانتقام ونكتفي بالمحافظة على الأمان. ولا يفقد القضاء شيئاً من جلاله بهذا الموقف بل يكون قد وفّق بينه وبين علم اليوم وفلسفته.

قد يقال أين تقودنا هذه الآراء؟ ولكنها آراء لا تحدث ثورة شديدة في الأخلاق. وهذه هي ميزة الحلول العلمية فهي تأتي تدريجياً دون رجة أو دوى. على أن بعض العلماء أشد صلابة من سواهم فهم لا يعرفون درجات في المسئولية، وكل مجرم في نظرهم عقل فاسد، وما القاتل سوى مريض، ومهما أبدى من الحيل ومظاهر الحرية الكاملة فهو غير حر لأن أعظم المجانين قد يغرون بمظاهرهم (أو حركاتهم الخارجية) وهو قد ولد مجرماً، وتركيبه التشريحي يجعل منه شيئاً محكوماً عليه بأن يؤذي ويضر، وبما أن جرمه فظيع فالعقاب على قدر ما توحي هذه الفظاعة من الهول ولهذا يستحق الإعدام.

هذه النظرية لا يخلو من المنطق والحزم وهي تؤيد المذاهب الحديثة دون أن تهدم العادة القديمة. لقد طوت صفحة المقدور ونقش مكانها كلمة الوراثة وصاحب هذه الفكرة هو لومبروزو حكم تورينو (إيطاليا) ولكن الفرنسيين لم يقبلوا بها، أي أن الإنسان لا يولد مجرماً، ولذلك لا يجعلون المسئولية واحدة لكل المجرمين.

إن كلمة إرادة حرة لا معنى لها عندهم فلسفياً، والعمل السيئ لا يأتيه الإنسان مختاراً بل مدفوعاً إليه بقوة لا تردها إرادته المريضة، ولكن الحوادث يختلف بعضها عن بعض بحيث يعتذر قياسها بمقياس واحد ولهذا يحسن تقسيم المسئوليات والنيات إلى درجات حسبما يكون التعمد والاستعداد السابق في ضمير المجرم، وهكذا فإن عدم المسئولية الكاملة أو المخففة التي لا يقبلون بها فلسفياً هي ضروريات عملية كثيرة الاستعمال.

وإلى القارئ بعض الأمثلة زيادة في الإيضاح:

هذا رجل مريض في عصبه تصيبه النوبة فيقوم ويمشي على غير هدى ويفيق من ذهوله بعد يومين فيجد نفسه في بلد مجهول لا يعرف كيف انتهى إليه، وفي طريقه قد قتل أو سرق أو أحرق مزرعة ولكنه يجهل كل هذا ولا يفهم ما يقوله الشهود.

وهذا آخر سكير يصاب بنوبة الهذيان الكحولي فيذبح زوجه لأنها تتمثل لعينه في صورة وحش يريد افتراسه، وهذا آخر ينتابه عارض من الجنون الهائج فيقتل حارسه.

هؤلاء القتلة الثلاثة لا يمكن تشبيههم برجل يفكر طويلاً فيما يريد أن يقدم عليه ويحسب حساباً للقتل، ويقتل ليتمكن من السرقة، مثل هذا لا يشفي غليل الناس أن يروه في المستشفى، والله وحده يعلم أي الثلاثة كان حراً أكثر من الباقين ليحسن أو يسيء.

يحكى أن حارساً نام يوماً في حالة سكر شديد فاستيقظ عند الفجر برؤيا هائلة: رأى قطار السكة الحديدية داخلاً عليه وهو يقذف شرراً ولهباً فأوجس خيفة وقبض على فأس عنده لقطع الأخشاب وضرب القطار ولم يكن القطار سوى أحد رفقائه الذي جاء يزوره فمات على الفور وقد أبى القضاء تصديق هذا الهذيان وحسبوه كذباً وخداعاً ولكن الطب استطاع أن يبرهن لهم إمكانية ذلك في مدمني الخمر. لا مشاحة أن هذا الحادث يستلزم القول بعدم المسئولية تماماً.

وهذه حادثة أخرى لا يتضح الحكم فيها بهذه السهولة: سيدة أنيقة

الملبس جميلة الطلعة دخلت يوماً مخزن تاجر مجوهرات في باريس، واختارت عقداً من الماس وطلبت من البائع أن يرسل معها من يثق به لتستشير زوجها فيه فإن لم يستحسنه أعادته وإلا رجع الرجل بثمنه، ولم ير التاجر ما يدعو إلى الرفض فذهبت مصحوبة بالرجل إلى طبيب مشهور متوفر على معالجة الأمراض العصبية هو **Le grand du Saull** ودخلت مكتبه بعد أن تركت الرجل في غرفة الانتظار وقالت له ما معناه: لقد تركت في الخارج نسبياً لي تنتابه أعراض جنون ومن أجله جئت أستشيرك فهو يتصور نفسه مستخدماً عند بائع حلى ويطلب أبداً عقداً من الماس يدعى أن امرأة سرقته منه، وبما أن حضوري يؤثر به كثيراً فالأفضل أن أنسحب لتتمكن من فحصه فحصاً دقيقاً وسأعود بعد قليل. وخرجت المرأة من باب آخر وأدخل الشاب فلما لم يجد المرأة صاح بالطبيب أين العقد فبتسم هذا ابتسامة إشفاق وأخذ يلقي عليه الأسئلة المعتادة والمسكين لا يفهم ما يعني ويزداد صياحاً وإلحاحاً في طلب العقد والطبيب يحاول تهدئته ويتابع السؤال عن صحته وصحة أبيه وأمه، وبعد لأي من الجهد أدرك خطأه ولكن السارقة كانت أفلت.

إن امرأة كهذه بارعة في تدبير الحيل هل يجوز أن تعد غير مسئولة وتعامل كالمريض؟ لا ريب أنها لم تكن سليمة الشعور ولكن تصرفها لا يسمح لنا أن نضعها في صف المصروع الذي حرق أو السكير الذي قتل ولو حاول الطبيب الشرعي أن يخفف عنها بعض المسئولية لتعذر عليه.

وجملة القول أن بين الإجرام والجنون علاقة متينة، وفي كل يوم يكتشف الطبيب حالات مرضية غريبة لم تخطر على بال مما يهيب به إلى

التعرض للمسئولية على غير ما يراه القاضي. والذي ساعد على حفر هذه الهوة بين القضاة والأطباء هو لومبروزو القائل بأن الإنسان يولد مجرماً كما ذكرنا آنفاً. وقد انتشر مذهبه انتشاراً هائلاً يوم ظهوره وأصاب من الشهرة في الأندية العلمية وغيرها قسطاً وافياً. ثم أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى إن لومبروزو نفسه اضطر فيما بعد إلى الرجوع عنه. وكان كاتب هذه السطور من الذين أثرت بهم كثيراً آراء لومبروزو فنشرت في المقتطف بعد إطلاعي على كتابة الرجل العبقري مقالاً بعنوان "الذكاء والجنون" وسألت المرحوم الدكتور صروف رأيه في الرجل ومذهبه فكتب إلى ما معناه أن لومبروزو شديد المبالغة فيما يدعي ولا يمكن القبول بكل ما كتب. ولم أتبين صواب هذا الحكم إلا بعد مرور الزمن. فما هي اليوم آراء الاختصاصيين المشهورين في الإحرام؟

كان لومبروزو أول من أعلن أن السواد الأعظم من المجرمين والقتلة واللصوص والمتهتكين يحملون في أجسامهم أثار التقهقر، وأيد قوله بالإحصاءات العديدة التي تبين كيف أن سلالة المصروعين والمجانين ومدمني الخمر سلالة سقيمة. مستعدة استعداداً فائقاً للجور عن قصد السبيل في حياة الاجتماع. واستنتج من هذا أن بعض الناس يأتون إلى الوجود حاملين جرثومة الشر والفساد، وليس هذا فقط بل من المستحيل أن يكونوا غير مجرمين لأنه يعتقد أن تركيبهم التشريحي الخاص يسيطروا على تركيبهم الأدبي ولا مندوحة لهم عن أن يقتلوا يوماً أو يسرقوا. ذلك ما كتب لهم من قبل أن يولدوا ولا مناص من المكتوب إلا إذا قضى عليهم عارض غير طبيعي فأماتهم قبل الأجل المحتوم.

وكانت السرعة التي امتدت بها شهرته وتعاظمت نذيراً بقرب زوالها فكثر خصومه في فرنسا وألمانيا وأنكروا عليه دعواه لأنه لا يوجد في نظرهم مثال تشريحي للذي يولد مجرماً. فضلاً عن أن المشاهدات اليومية تدل أن الإنسان مهما يكن محملاً في نشأته من أعباء الوراثة المرضية أو الفاسدة فالبيئة التي يعيش فيها والأحوال التي تكتنفه والهواء الذي يستنشقه والصور التي تلتقطها عيناه والعظات التي تنطبع في دماغه، كل ذلك من العوامل القوية التي لا بد لها من تبديل ذاتيته من حال إلى حال.

ولنضرب مثال من الأمثال: رجلاً يريد أن يسرق ويهم بذلك.

يقال إن في أعماق ضمير هذا الرجل يجري حديث طويل وأخذ ورد بين الرغبة والرهبة، أو بالأحرى هي مأساة تمثل على مسرح النفس الخفي الذي نسميه الإرادة الحرة، وأبطال هذه المأساة الإحساسات القديمة والحديثة والصور العالقة بالذهن تجيء وتروح على المسرح. تجيء وفي كل منها ما فيه من حيوية وقوة وميل كثير أو قليل للتحول من شعور إلى عمل، ثم تذهب وقد سُدل الستار. والممثل الأول الذي يظهر على المسرح هو التجربة بارزة في صورة السرقة، وسهولتها تتولد بسرعة في عقل المثقل بالوراثة المرضية أو سموم الكحول ويظهر إلى جانبها شقاء الأيام الماضية ومطل الراحة الآتية في ظلال الكسل السعيد. ثم يظهر ممثل آخر هو صورة الشرطي ومعها صورة القاضي والسجان والسجن. وحينئذ يقوم صراع عنيف بين الفكرتين، فكرة السرقة وفكرة العقاب فتختفي إلى حين دوافع السوء في ظلمة الليل ثم تخرج أوضح مما كانت، يقويها حب التقليد وتذكارات قديمة لرفقاء له في الكسل سرقوا ولم يقبض عليهم. بل ربما

ذكرت الجرائد أعمالهم مقرونة بالإعجاب، وصاروا من الزعماء المحبوبين من النساء. هذه المرة يحمي وطيس المعركة بين الفكرتين الإقدام والإحجام وعبثاً تبدو على المسرح أشباح الخوف من الفشل أو من العدالة، وما يحس به الإنسان من انقباض الصدر على عتبة كل جديد فإن تغيرات الجو أو استهزاء صديق لتردده، أو تجرع كأس من الخمر يكفي لإرجاع هذه الأشباح إلى مكمنها، ويتهيج العقل فتصبح فكرة السرقة جلية كل الجلاء وتخنق كل أفكار الخير. وهكذا تعقد العزيمة ويقع الحادث المشئوم.

هذا مشهد من مشاهد البقاء يغلب القوي فيه الضعيف ويكون الشر أسبق من الخير لا لسبب سوى أن التربية لم تمن كافية وافية ولا شيء فيها مما يدل على أن الإنسان يولد مجرماً.

هذه التربية التي يمكنها مع البيئة إصلاح ما أفسدته الوراثة وما ذكرت ينطبق على كل فتي والله يعلم ماذا كان مصيرنا نحن المتنعمين بالرقي لولا الإرشاد والقدرة فحب التقليد من أعظم العوامل في الحياة، وما دماغنا في الواقع سوى آلة لتقليد ما نرى.

والمجرمون يحملون منذ الولادة، فضلاً عن الحدة وسرعة الغضب رخاوة في النفس وهشاشة في الشخصية تجعلهم قابلين للتأثر ممن حولهم وتقليدهم. ولهذا كانت عشرة السوء ومطالعة أخبار القتل في الجرائد ومجاورة السجون وغير ذلك عاملاً قوياً في تحبيب الشر إليهم، ولكن هذا لا يمنع أن تكون نفوسهم مستعدة أيضاً لعكس ذلك أو أتيح لهم معاشرة الفضلاء والاكتساب من أخلاقهم وعاداتهم.

يقولون إذا امتلأت المدارس فرغت السجون، وهي حقيقة تؤيدها الفسيولوجيا لأن الدماغ كلما زاد غذاؤه من المعرفة خف اندفاعه وكان له من العلم لحام لغرائز السوء غير أن العلم وحده لا يكفي ولا بد من الأدب والشعور الديني الذي يدعم الأدب. وقد تبين من الإحصاءات التي جرت في صدر هذه المئة أن القتل والانتحار زادا في فرنسا مع أنه في إنكلترا قد أقفلت بعض السجون لعدم الحاجة إليها كما ذكر السر جون لبوك في المؤتمر الاشتراكي الذي عقد لذلك العهد.

والسبب في زيادة الشر في فرنسا ونقصانه في إنكلترا يعود في الأول إلى الإفراط في الكحول وفي الثاني إلى تأصل الفكرة الدينية في الشعب البريطاني في حين كانت فرنسا تحاربها بجعل التعليم علمانيّاً محضاً. لا ريب أن الخوف من اليوم الأخير. أكبر لاجم لمطامع البشر وشهواتهم. ومهما يكن مذهب الإنسان في التعليم ومناهجه فلا بد للشعب من دين ومن أدب ديني.

ولنرجع إلى لومبروزو فنقول إن الرجل لا يولد مجرماً، لا قاتلاً ولا لصاً. يولد ودماغه سريع التهيج قابل للتأثر وما الوراثة إلا من الأسباب المساعدة على الشر، وبالتربية الصحيحة الكافية والقدوة الصالحة يمكن التغلب عليها، على شرط تشخيص الداء، باكراً. وجل ما يستطاع عمله في الحالة الحاضرة الإكثار من المستشفيات والملاجئ للأطفال المنكوبين.

الطب وعلم النفس

الدماغ، النخاع الشوكي، المراكز الدماغية، النفس، الذاكرة.

١

لا نحاول في هذه الصفحات أن نبين كل ما مهر به الطب والفسيولوجيا علم النفس الحديث من الدقة والاطمئنان العلمي وإنما هي نظرة سطحية في الموضوع على أنه لا ندحة لنا بادئ ذي بدء من كلمة وجيزة عن الجهاز العصبي على ما في هذه الكلمة من الوعورة والجفاف.

يتلقى الطالب في المدرسة مبادئ علم التشريح فيعرف أن الجمجمة علبة من عظم تحوي كتلة قريبة الشكل من الكرة مركبة من مادة لينة سريعة العطب عظيمة الشأن هي الدماغ، وأن العمود الفقري يحوي مثل هذه المادة ويسمونها الحبل الشوكي، وأن خيوطاً كثيرة بيضاء تتمشى في كل نواحي الجسم إلى جانب الشرايين والأوردة وهي من مادة الدماغ والنخاع ويقال لها الأعصاب.

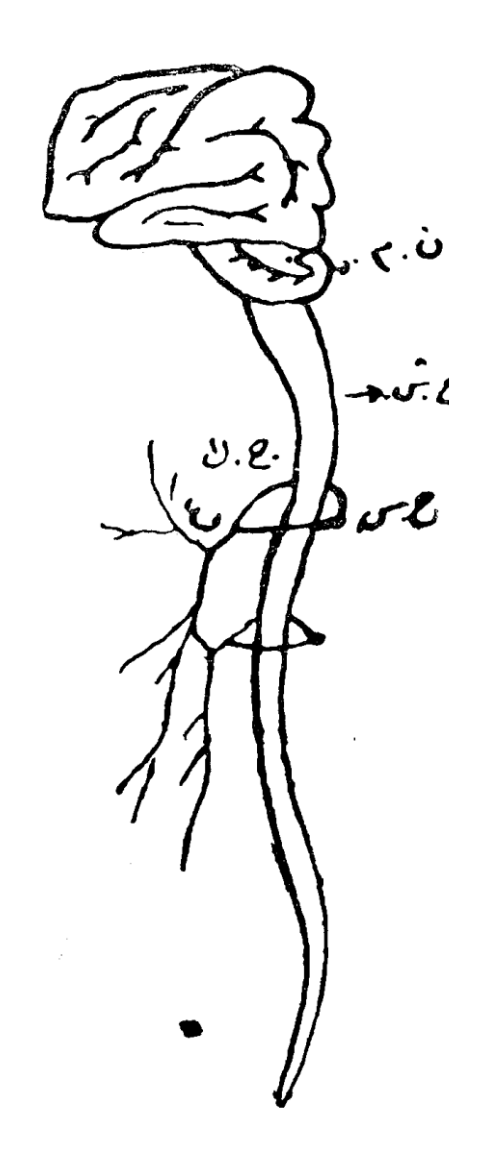
الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب يتصل بعضها ببعض فيؤلف مجموعاً لها فروع في كل مكان من الجسم فالأعصاب الآتية من الأطراف تنتهي في مسيرها إلى الحبل الشوكي وهذا ينتهي إلى الدماغ فإذا بالدماغ المرجع الأخير الأسمى وهو ألطف أعضاء الجسم وأهمها ولا تجد في

الكائنات من حي وجماد شيئاً يماثله أو يعادله أو يضاهيه في وظيفته السامية. هنا منبع الحياة والقوى ومحلى الروح بل صورتها المادية إذا جاز لنا هذا التعبير.

كيف يتصل العصب بالحبل الشوكي؟

يرى لدى التشريح أن هذا الاتصال يتم بجذرين: جذر أمامي هو جذر الحركة وخلفي هو جذر الحس ولكل من هذين الجذرين وظيفة خاصة فإذا قطعت جذر الحركة جمدت العضلات المتعلقة به وأصابها الشلل وإذا قطعت جذر الحس أضاعت المنطقة الخاضعة له إحساسها فلا تشعر بالوخز أو القرص أو الحرق.

إذا فالجذر الأمامي هو للحركة والخلفي للحس ولكن العصب نفسه وما يتفرع عنه يجمع بين الاثنين، يعني أن مهمته نقل التأثيرات الآتية من الخارج إلى المراكز العصبية وسوق الأمر من هذه المراكز إلى عضلاتنا الخاضعة فتتحرك. هذه هي الحياة البشرية: إحساس ثم عمل وكل ظواهر الحياة تقوم على هذين الأمرين أخذ ورد فهي تستقي الإحساس وتحوله إلى حركة.

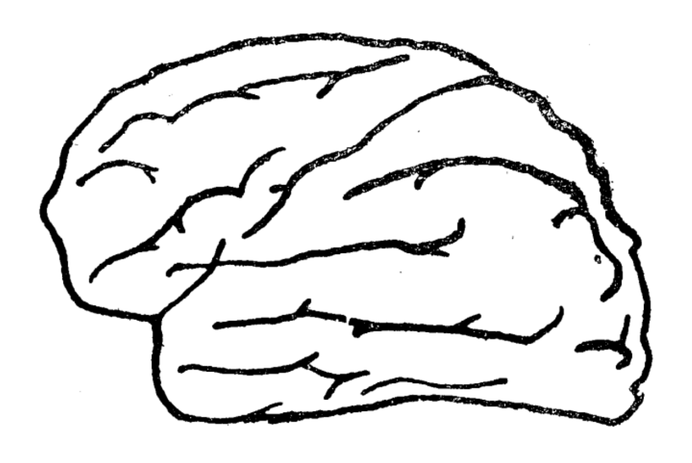


ن.م – النخاع المستطيل ح.ش – الحبل الشوكي ج.ك – الجذر الأمامي

وليس من الضروري للتأكد من صحة هذا أن يقوم بعملية تشريح وقطع ففي وسع كل إنسان أن يجري الاختبار في ذاته فينجلي له عمل العصب بصورة بسيطة واضحة.

اجلس أيها القارئ وضع فخذك الأيسر على ركبتك اليمنى واقرع بحفة كفك أو شيء آخر مكان الرضفة بحيث تصيب طرف العضل أي الوتر وإذا لم تنجح في المرة الأولى فأعدها ثانياً وثالثاً فتجد أن رجلك اليسرى قد ارتفعت فجأة دون إرادتك.

هذه الظاهرة المسماة الفعل المنعكس للركبة يحدث كما يلي:



النخاع وتلافيفه

تقع حفة الكف على أطراف العصب المنتشرة في وتر العضل فتصعد موجة اهتزازية وتطوف العصب في مداه حتى جذر الحس في الحبل الشوكي وتخترقه وهناك تتبدل فتعود مجتازة جذر الحركة وتسرع إلى عضل الفخذ المتصل بالوتر وتجبره على الانقباض. تهيج خارجي يندفع نحو المركز ثم يرجع منه وقد تحول إلى حركة. هذا هو رد الفعل، رواح ومجيء أو ورود وصدور مؤلف من اهتزاز في عصب الحس في القسم الأول من رحلته وفي عصب الحركة في القسم الثاني.

وما الحياة لو حققت سوى سلسلة أعمال عصبية منعكسة قد تكون أكثر تعقداً ولكنها من طبيعة واحدة. وحادثة الركبة هذه كما يقول الألمان هي ألف ياء البسيكولوجيا كما يفهمها علماء اليوم وهي بسيطة الأهمية لأنه لا دخل للإرادة فيها والأفعال المنعكسة السامية هي التي تجري في الدماغ حيث ينتهي القسم الأكبر من ألياف الحركة والحس التي تتألف منها الجذور العصبية القائمة على مدى الحبل الشوكي.

وما مر بنا يسهل لنا بعض التسهيل درس الدماغ تشريحيّاً ولكننا نحتاج هنا أيضاً نظراً لوعورة الموضوع وصعوبته أن نكتفي ببعض المعلومات الضرورية مستعينين أيضاً بالرسوم.

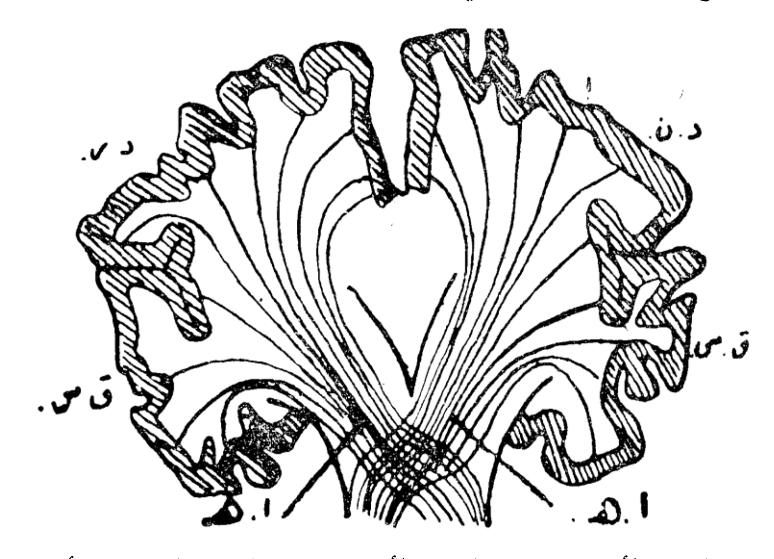
إن دماغنا كسائر جهازنا العصبي منتظم الأجزاء مضاعفها فنحن في الواقع نحمل دماغ أيمن ودماغ أيسر يفصل بينهما حفرة ممتدة من الجبين إلى الرقبة كأنهما نصفا كرة وفي أعماق هذه الحفرة مادة بيضاء يقال لها – الجسم الصلب – تصل بين النصفين وتجعل منهما شريكين في التأثرات.

ويرى على الرسم التالي خطوط سوداء تمثل الأخاديد المحفورة في سطح المادة الدماغية تفصل بين التلافيف. أما قشرة الدماغ فهي سنجابية اللون، والمادة التي تحتها بيضاء تمر بها الألياف التي يتركب منها داخل الدماغ، وهي أداة الوصل بين المادة السنجابية والحبل الشوكي، كما أن الحبل الشوكي يصل بينهما وبين أعصاب الجسم كافة.

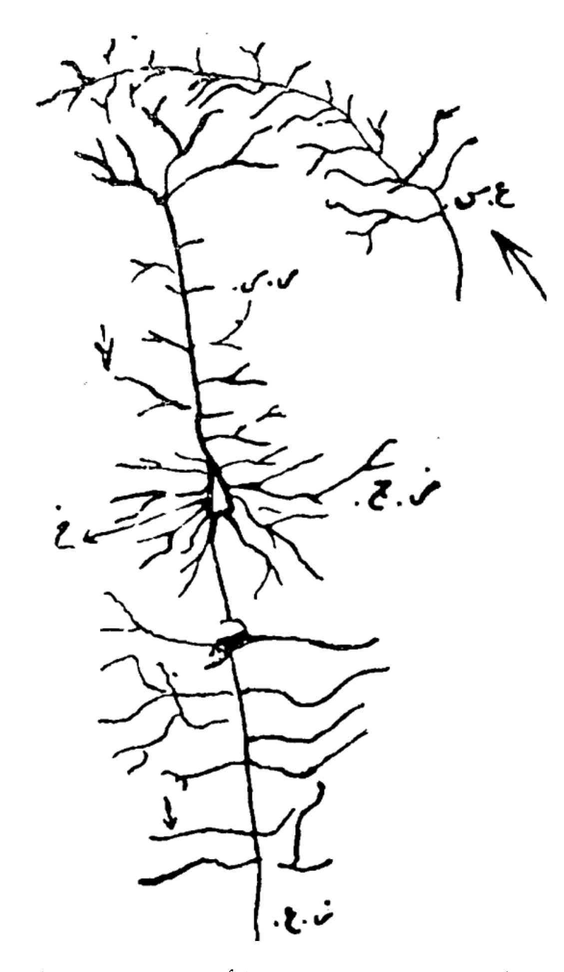
ومن صفات هذه الألياف المميزة لها أنها لدى خروجها من المخ ودخولها في النخاع المستطيل تتصالب ليذهب ما كان منها في اليمين شمالاً

وما كان في الشمال يميناً فيكون الدماغ الأيسر. مسيطراً على حركة القسم الأيمن من الجسم والعكس بالعكس.

والمادة السنجابية مركبة من خلايا كبيرة مثلثة الزوايا كثيرة الخيوط المشتبكة بعضها ببعض إلى حد أن تجعل منها شبه غابة كثيفة غضة. خلايا لها عظمتها وجلالها لأنها مركز الشعور والتفكير فإذا كنت أيها القارئ لا تؤمن إلا بالمادة فهذه الخلية التي هي في ذروة الكائنات تكون لك آخر ما يكرم ويُعبج لأنها وحدها نقودك إلى هيكل الأسرار في هذا العالم المحاط بالأسرار، وإذا كنت ممن يؤمنون بالروح الخالدة فإن احترامك لهذه البقعة الصغيرة السوداء ذات القرنين لن ينقص ولن يضيع فهي الهيكل الذي تتجلى فيه الروح والمحراب الذي يطل منه العقل. بقعة غامضة عجيبة يبدأ فيها ما يقع تحت الحواس وينتهي عندها ما وراء الطبيعة.



د.ن – الدماغ الأيمن، د.س – الدماغ الأيسر، ق.س القشرة السنجابية، أ.هـ – الألياف الهرمية المتصالية



ع.س – عصب الإحساس، ز.ب – زوائد الرأس، ز.ج، خ – الخلية الدماغية، ز.ع – زوائد عصبية

وتاريخ الخلايا الدماغية قريب العهد بنا يرجع الفضل فيه إلى Golgi الإيطالي ورامون إي كاجال الإسباني، وإليك خلاصة ما علّماه.

للخلية الدماغية زوائد هلباء أي كثيرة الشعر مرتبة على نظام ثابت، وهي ثلاثة أنواع: زوائد الجانب وزوائد الرأس وزوائد عصبية.

فالزوائد العصبية الآتية من المنطقة الوسطى لقاعدة الخلية تؤلف الأنبوبة العصبية وتصبح أحد تلك الألياف الواصلة التي تتركب منها المادة البيضاء كما قلنا وتتصالب عند النخاع المستطيل مع الألياف الآتية من نصف الكرة الآخر لتدخل في الجهة الثانية من الحبل الشوكي المقابلة للجهة التي أتت منها ولا تقف إلا عند حد تنتهي فيه ملتفة كأغصان الشجر حول خلية حركية للنخاع. ومن هذه الخلية الحركية يخرج خيط جديد يتمشى في العصب حتى العضل الذي توكل حركته إليه. تلك هي خطة الزائدة العصبية للخلية الدماغية.

أما زائدة الرأس وتسمى (البروتوبلاسمية) فهي قصيرة جداً ولكن عند أهلابها تنتهي أطراف الأنبوبة العصبية المقتربة نحو المركز الحاملة أحاسيس العالم الخارجي.

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى رأي قام به بعض علماء فرنسا وألمانيا قد يلقي نوراً ساطعاً على كثير من الظاهرات العقلية الصعبة الفهم.

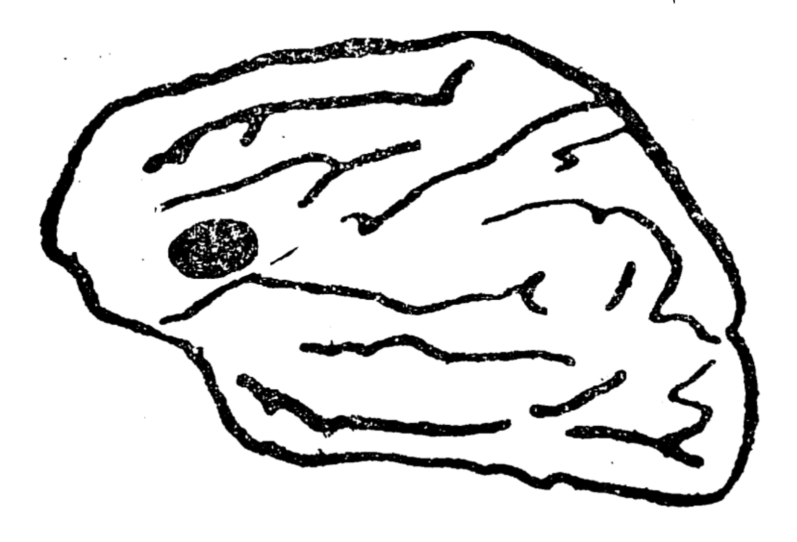
لقد أطلق بعضهم على الخلية العصبية وزوائدها أسم عصبون فالعصبون يمتد من أطراف الزائدة البرتوبلاسمية إلى أطراف الأنبوب العصبي في الحبل الشوكي. هذا العصبون كما أثبتت رامون إي كاجال له ذاتية مستقلة لا اتصال لها بغيرها إلا بالملامسة فقط فلا تنتقل الموجة العصبية من عصبون إلى آخر يسوي ذلك. ولكن هذه الملامسة غير ثابتة وقد لا تكون كل ساعات الحياة، في اليقظة والمنام، في الراحة والتعب.

فإذا فرضنا أن اهتزازاً عصبياً وصل إلى الدماغ بواسطة عصب الحس

وكان الدماغ في حالة التنبه فإن زوائد الرأس للخلية الدماغية تنتفخ وتنتصب وتتصل بأطراف عصب الحس فيتم الإحساس وقد ينتج عنه عمل مقابل. ولكن إذا كان الدماغ تعباً مخدراً فإن زوائده تبقى متقلصة على نفسها فلا يمكنها الاتصال بأطراف الحس ولا يقع بينهما تعامل.

وهكذا يبدو الدماغ كالقمة لأفعالنا المنعكسة السامية لأن فيه يتحول الحس إلى عمل وهذا التحول من إحساس أو عمل أو من ورود إلى صدر يتم في نقطة معينة هي ملتقى أواخر عصبون الحس بأوائل عصبون الحركة أي عند "الأهلاب" التي تتوج الخلية الدماغية في زاويتها العليا.

هناك تتم أعمالنا البسيطة الفجائية الخارجة عن سلطة الإرادة.



النقطة السوداء هي التلفيفسة الثالثة المسماة بروكا

ولكن الدماغ فوق هذا أداة لتداعي الأفكار والصور (والمقصود بالتداعي هنا التنادي لا التهدم) فإن الصور والأفكار القديمة والحديثة التي

تنام وتستيقظ في خلايانا (الذاكرة) قد تتجاوز وتتمازج بفضل الزوائد الجانبية والخلايا الأفقية التي تتشابك أطرافها وتجمع بين أنحاء القشرة بحيث تضمن اشتراكاً في الوظيفة. فنحن نتصور الحوادث والأشياء ونتأمل ونقيس ونحكم بفضل ما يجري في هذا الميدان الضيق الرحب.

هذه المبادئ الأولية عن الخلية الدماغية تساعدنا على فهم ما يسمونه مراكز القوى العقلية في الدماغ. والأساس في هذه التسمية أن الألياف العصبية الذاهبة من البنصر مثلاً نحو القرن الخلقي للنخاع الشوكي تصعد من هناك إلى مكان معين في الدماغ هو واحد لي ولك ولكل الناس.

وهذا الرأي بتخصيص مركز في الدماغ لكل من القوى العقلية نجد جرثومة في مذاهب فيثاغور وأفلاطون وأرسطو ويمكن القول أنه منذ ذلك العهد وعلماء الحياة منصرفون إلى البحث عن المركز التشريحي لوظائف الشعور والذكاء في حنايا هذه الكتلة الكروية السمراء الظاهر البيضاء الباطن.

وبناء على هذه الفكرة الأولى بوجود مبدأ سام مجرد من المادة خارج عن الجسم يشرف على وظائف العقل والشعور، واعتقاداً بوجوب وجود صلة بين هذا المبدأ والجسم أفرغ فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر جهدهم لمعرفة هذه النقطة المختارة، مركز الروح، فوضعها دكارت في الغدة الصنوبرية لأنها وحيدة قائمة في الوسط، وجعلها الجراح لابيروني في الجسم الصلب لأنه وجد بالاختبار أن آفات هذا الجسم يصحبها اضطراب وخلل في العقل وفي الإحساس.

وكان الرأي المجمع عليه في أوائل القرن الماضي أن في وظائف الدماغ تجانساً تاماً وأنه في كل من نصفي هذه الكرة لا يوجد جزء يختلف عن غيره، إلى أن طلع عليهم "كمال" بمذهبه الجديد "بالمراكز الدماغية لقوى العقل". وقد كان لهذا المذهب ضجة في الأوساط العلمية، ولكنه كما قال شاركو: لقد جرب "كال" تقسيم الكتلة الدماغية إلى بيوت مستقلة يتمتع كل منها بصفات خاصة فغالى كثيراً في ذلك وكانت مغالاته وعدم التدقيق من العوامل التي أضرت بما في هذا المذهب من الحسن وأضعفت ثقة العلماء بالمبدأ.

وجاء بعده بوليو الكبير فترك جانباً دراسة الدماغ وتقسيمه الخيالي بحسب قوى النفس وأكب على البحث عن مركز النطق بالمشاهدات السريرية والتشريح بعد الموت فانتهى به إلى جعله في القسم الأمامي، ثم جاء بروكا سنة ١٨٦٢ فأثبت بالبرهان أن النطق متعلق بالتلفيقة الجبهية الثالثة فسموها تلفيفة بروكا.



مركز القوى العقلية في الدماغ

ثم حدث جمود وانقطاع فوقف البحث حيناً.

ولم تنفع اختبارات جاكسون من أن آفات المخ السطحية كالأورام والأجسام الغربية قد تسبب بتهييجها للمادة السنجابية تشنجات جزئية حسب الجهة المصابة، فكان أشهر علماء الفسيولوجيا يعتقدون أن الدماغ واحد ف مجموعه متجانس الوظيفة ولا دخل له في حركات الجسم. وأيد فلورنس سكرتير ندوة العلوم (الأنستيتو) وعضو المجمع العلمي (الأكاديمي) هذا القول باختباراته على الضفدع والحمام فقد نزع المخ عنهما وبقى الضفدع يسبح والحمام يطير. في ذلك العهد قام طالبان ألمانيان بتجارب جديدة في الكلاب فتوصلا إلى النتائج الآتية سنة ١٨٧٠:

(١) يوجد في كل من نصفي الكرة الدماغية عند الكلب مناطق معينة إذا أهجتها بالكهربائية تولد عنها حركات محدودة في الأرجل المقابلة، أي أن تهيج النصف الأيمن بسبب حركة في الرجل اليسرى والعكس بالعكس.

(٢) أن إتلاف هذه المناطق عينها يسبب شللاً حيث سبب التهييج حركة.

(٣) هذه المناطق لا تتغير مراكزها وهي منحصرة في مسافة صغيرة فلو هيجت المكان القريب منها بالكهربائية أو أتلفته بالسكين لما أحدثت حركة ولا شللاً.

وهكذا جاء البرهان القاطع على وجود مراكز دماغية لقوى العقل، واندفع العلماء من كل قطر لإجراء التجارب في هذا السبيل فتوصلوا إلى

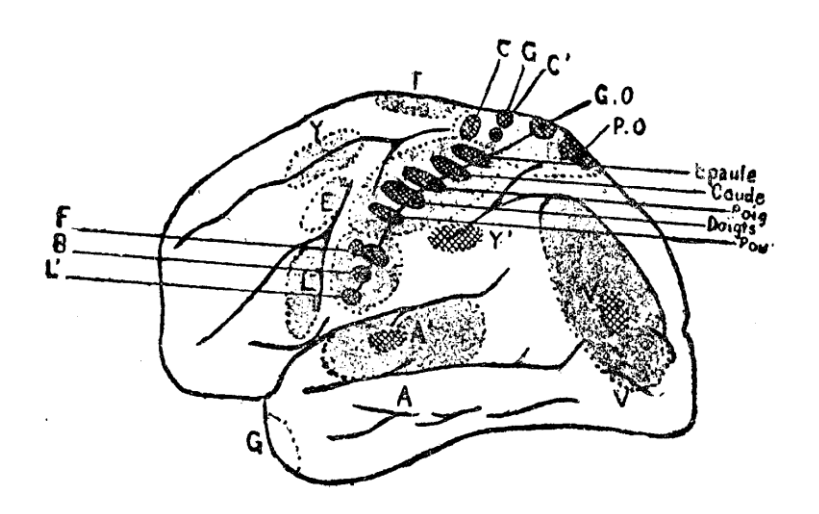
اكتشاف مركز الحركة عند الحيوان الأقرب إلى الإنسان أي القرد. ولكن ما لم يستطيعوه كشفاً هو التثبت من دماغ الإنسان الذي استعصى عليهم إجراء التجارب عليه فتخلى عنه علماء المختبر وتركوا الأطباء مجال البحث فيه وبذلك أتيحت الفرصة لشاركو ليطلع عليهم في غياهب تلك الأبحاث بقبس جديد.

٢

كانت معارف الناس عن الدماغ حتى أوائل القرن التاسع عشر ضيقة النطاق، والشروح التي تنشر عنه غامضة متناقضة وليست ثمت ما يجدر الأخذ به لولا اكتشاف بروكا مركز لغة النطق في التلفيفة الجبهية الثالثة، ولولا بعض الأبحاث لبعض الأساتذة مثل لبين وسواه. فلما برز شاركو إلى الميدان أنشأ أول ما أنشأ بالاشتراك مع زميله بيتر رسالة قدمها إلى جمعية علم الحياة "بيولوجيا" سنة ١٨٧٧ وضع فيها الأسس لطريقته – التشريحية السريرية – وأفاض في بيان ما يمكن الاستفادة منه بالمقابلة بين الأعراض التي تعرو المريض في حياته من تشنج أو شلل وما يكشف عنه تشريح جثمانه بعد الموت. وما برح الاثنان منذ ذلك العهد إلى عام ١٨٨٨٣ يجمعان البينات والأدلة المؤيدة لآرائهما حتى انتهى علماء العالم بالانضمام إليها. وتعددت الأبحاث في هذا الموضوع فأدت إلى اكتشاف نقاط في المراكز الخفية من الدماغ يتم بها التقاط الإحساسات الآتية عن طريق السمع والبصر بحيث أمكنهم في آخر الأمر أن يصوروا مخططاً للدماغ حسب الرسم التالي.

هذا الرسم يظهر لنا أن في قشرة الدماغ مراكز لاستقبال أحاسيس النظر والسمع والذوق والشم، وأخرى لاستقبال الأحاسيس الآتية من مختلف نواحي الجسم وللإشراف على حركات تلك النواحي. وفي قاعدة التلافيف الجبهية مركز صغير للغة النطق وآخر للغة الكتابة، على أن المركز الثاني أي المختص بالكتابة لا يزال موضع الخلف بين العلماء وأكثرهم يرى أن مركز لغة الكتابة هو في المنطقة التي تسيطر على حركات الأيدي والأنامل.

هذا هو الحد الذي وصلوا إليه، وهو كما نعلم لا يكفي للتعرف إلى مراكز الإدراك والإرادة والذاكرة ولا إلى تلك البقعة الصغيرة من سماء العقل البشري الذي يتجلى فيها كوكب الذاتية المعبر عنه بكلمة "أنا".



"عن كتاب دبوف إشار": **A** مركز للسمع ▲ مركز خاص بالسمع الكلامي ▼ مركز النظر **`V** مركز خاص لنظر الكلمات – **G** مركز

للذوق – L مركز للنطق E مركز للكتابة T مركز لحركات القسم الأعلى من الجسم – V مركز لحركات الرأس والعينين `Y مركز لحركات كرة العين – F مركز لحركات الوجه B – مركز لحركات الفم L – مركز لحركات اللسان – C مركز لحركات الفخذ – G لحركات الركبة `C – لحركات الرسغ – C-O لحركات الإبهام – O–٨ لحركات الخنصر.

ومهما يكن من هذه القشرة إلى مراكز الإدراك والإرادة والذاكرة ولا إلى تلك البقعة الصغيرة من سماء العقل البشري الذي يتحلى فيها كوكب الذاتية المعبر عنه بكلمة "أنا".

ومهما يكن من هذه القشرة الدماغية فهي لا ترينا شيئاً من هذا، لأن الإدراك والإرادة والذاكرة والشخصية كلمات خلقناها لحالات تصورناها، أو تعلمناها ككيان قائم بنفسه وأطلقنا عليها اسم قوي النفس.

وإذا كان من سبيل للوصول إليها فبدرس فسيولوجية الدماغ أي وظيفته، فترى أن الدماغ آلة معقدة التركيب لتعدد ما فيها من الأدوات، ولكنها بسيطة في مبدئها فهي تلتقط من هنا وهناك صوراً للسمع وصوراً للصوت وصوراً للشم أو الذوق ثم تحولها إلى حركة، إلى نطق، إلى كتابة.

وهذه الصور التي يلتقطها الدماغ فتنطبع فيه يمكنها قبل أن تتحول إلى عمل، أن تجاوز صوراً غيرها وتشترك معها وتوقظ في طريقها صوراً أخرى نائمة.

هذا هو الدماغ، كل الدماغ.

وصف وجيز كما ترى، ولكنه كاف ليسهل لنا تعريف ما يسمونه قوي

النفس تعريفاً علمياً وفسيولوجياً.

فالذاكرة – الوظيفة الأصلية الأساسية والأكثر غموضاً – هي خاصة خلايا القشرة الدماغية أن تحفظ الصور في حالة النوم لتوقظها وتبعثها من مكانها لأول سبب كتهييج خارجي، أو احتدام الدورة الدموية في تلك الناحية من الدماغ، أو سريان موجة عصبية من جماعة من الخلايا إلى جماعة مجاورة لها.

ولا تحسب هذه الخاصة وقفاً على النسيج الممتاز الشريف الذي تتألف منه مراكزنا العصبية فالتاريخ الطبيعي يعلمنا أن مزية حفظ الأثر الحسي ثم بعثه وإحياؤه من الصفات المنتشرة في المادة. وهذا الأمفيوكس **Amphioxus** وهو من أبسط الحيوانات البحرية تركيباً بل ربما كان الحلقة الفاصلة بين ذوات الفقر والحيوانات الرخوة يتمتع بالذاكرة على الرغم من أنه عادم الدماغ وأعمى لا يتأثر بالنور.

والجماد له ذاكرته فإن بعض شفرات الفولاذ إذ طبعت عليها آثار الأصابع مثلاً ومسحتها ثم عدت بعد أيام وعرضتها للضوء الشديد فإن تلك الآثار تظهر ثانية.

ولنعد إلى الذاكرة البشرية فهي إذن مقيمة في كل مكان من الدماغ يتصل فيه خيط عصبي للحس بخلية كبرى من المادة السنجابية. وإن هي إلا بقية أحاسيس قديمة، بقية قادرة على الدوام أن تنبعث ثانية بتأثير تهيج جديد.

لا ريب في أن تفهم الذاكرة على هذه الطريقة التشريحية لا يعطينا

مفتاح السر ولا نزال بعيدين عن إدراك هذه المقدرة الغريبة التي تستطيع بها أحاسيسنا أن تتوارى وتزول ردحاً من الزمن – قد يطول وقد يقصر – ثم تطلع علينا ثانية. ولكن حسبنا إلى حد ما أننا عدنا نفهم الذاكرة كوحدة لا تتجزأ كما كانوا يفهمون.

وتعريف الذاكرة يسوقنا حالاً إلى تعريف الشخصية. فإن "أنا" يبدو بعد هذا كمجوع أميالنا الموروثة وإحساساتنا السابقة أي مجموع معارفنا. إن ضمير المتكلم عند ما نلفظه، معناه كل ماضينا العقلي وقد استيقظ بإحساس جديد. "أنا اشعر بوخزة إبرة في يدي" معناه فسيولوجياً هكذا: أعصاب الحس في يدي حملت الساعة، إلى بعض الخلايا الموجودة في القسم الأوسط من التلافيف الجبهية والصدغية، إحساساً حاداً، وهذا الإحساس أيقظ في قشرة دماغي ذاكرة إحساسات سابقة من النوع ذاته، وهذه الإحساسات السابقة أحست بالزائر الجديد وأدركت وجوده وتعرفت إليه.

فيمكن إذن تعريف الشخصية أنها ذاكرة الإحساسات القديمة المتنبهة بالإحساسات الجديدة التي تضاف إليها على الدوام.

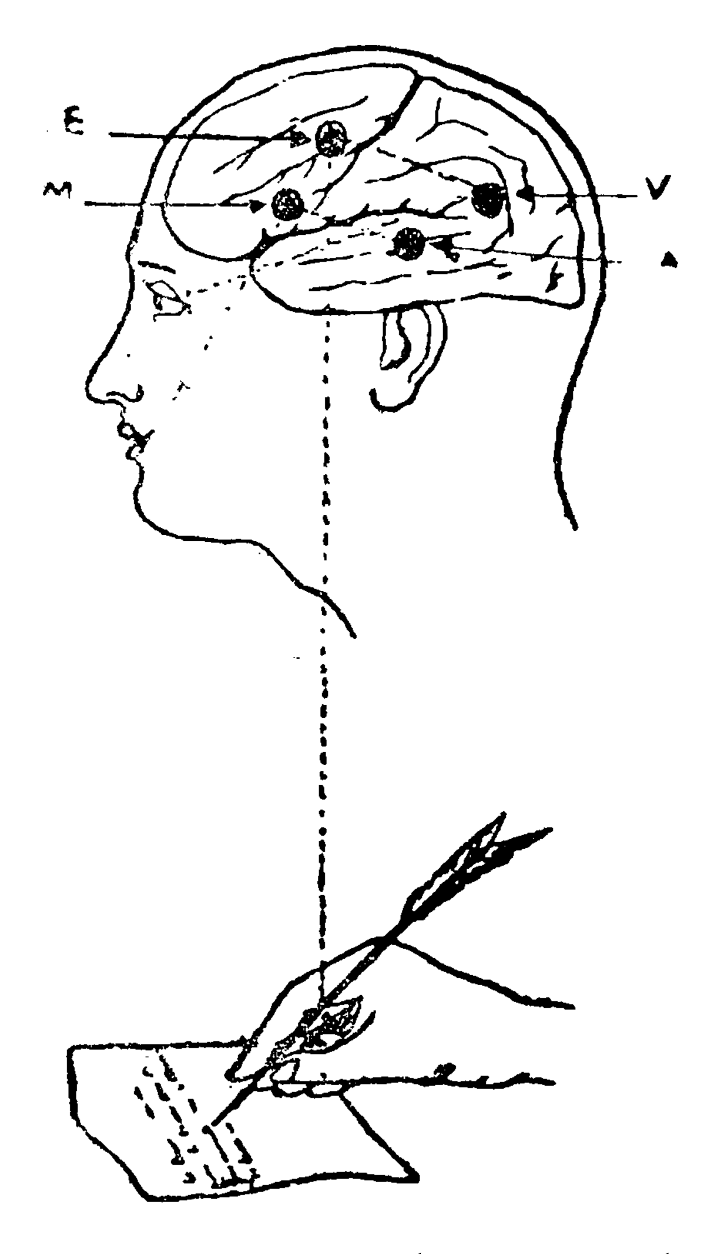
وللذاكرة مزية أخرى فهي الأداة الأصلية للإرادة. إن الإرادة هي المقابلة أو المقايسة إذا شئت بين إحساس جديد مندفع يصحبه ميل شديد إلى العمل والمعارضة القديمة المتجمعة بالوراثة في خلايانا الدماغية، فينتج عن هذه المقايسة صراع يتغلب فيه القوى على الضعيف كما هي شرعة الطبيعة فإذا كان الرجل من الذين لم تثقلهم الوراثة الفاسدة وقد عاش في

بيئة صالحة فإن المعارف الحكيمة التي اكتسبها من خبرة أسلافه ومعلميه وخبرته نفسه تتغلب بسهولة على الدوافع الشديدة والأعمال المنعكسة البهيمية. ولكن ابن السكير مثلاً الذي عاش في خصام دائم بين الأم والأب واحتك مذ شب عن الطوق بعشراء السوء فهذا لا يستطيع الإفلات من قبضة الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. وقد أشرنا إلى شيء من هذا في مقالنا عن الطب والقضاء.

بعد ما ذكرنا لك لا أظنك أيها القارئ تطلب مني أن أدلك على مركز الإدراك في الدماغ وهو بلا ريب في كل ناحية من القشرة لأن معناه الأساسي اشتراك صور وأفكار ومقابلة وحكم. وعمله مضمون بالألياف الفرعية العديدة التي تضم – بالمماسة – خلايا الحس والحركة وأيضاً الخلايا المشتركة التي تمر في كل مكان من القشرة لتقرب بين نواحيها المتباعدة في الظاهر وتجمع بينها بالوظيفة وعلى هذا الوجه يتم اتصالنا بالعالم الخارجي.

وزيادة في بيان هذا الاتصال أقدم لك هذا الرسم الآتي (نقلاً عن الأستاذ "كراسة" أستاذ الطب في جامعة مونبليه سابقاً) الذي يجلو لنا بعض الجلاء وظيفة النطق في الإنسان.

أول ما يتبنه في الوليج الجديد منطقة A أي سمع الكلمات فهو لا يرى بعد ولكنه يهتز للأصوات التي تكتنفه. في هذه المنطقة يبدأ "رأسمال" دماغه بعناصر النطق الأولى وفيها تطبع الصور السمعية، صور المقاطع التي تتركب منها الكلمات. وهذه المنطقة A مشتركة مع M أي تلفيفة بروكا التي تهيمن على حركات الحنجرة واللسان والفم المؤدية إلى لفظ الكلمات.



A مركز سمع الكلمات **V** مركز النطق الكلامي **M** لغة النطق **E** مركز الحركات اللازمة للكتابة.

فانظر ما يحدث عندما يبدأ الطفل بلفظ مقطع "ما" الذي بالتكرار سيصل به إلى مناداة أمه "ماما": يكررون على الطفل بلا انقطاع هذا المقطع، وفي كل مرة تهز هذه الموجة الصوتية الواصلة لأذنه أطراف عصب السمع في مداه حتى القشرة في المنطقة A. ولكن هذا الاهتزاز يحاول أبداً الإفلات فهو ككل قوة تدخل فينا فإنها تريد الخروج، أي إن الإحساس يطلب التحول إلى عمل (راجع المقال السابق). إذن لا تقف الموجة العصبية عند A إلا ما يكفي لتترك تذكارها وتكمل طريقها تابعة أسلاك الاشتراك A-M حتى M. وبعد أيام من هذا التمرين تكون الطريق قد عبدت وحركات الحنجرة واللسان والفم الضرورية للفظ المقطع "ما" قد اتسعت وتوافقت وبعد تجارب عديدة وتلمسات كثيرة يلفظ فم الولد "ماما" لفظاً ميكانيكياً ليس فيه شيء من الحنان بقصد التقليد وإرجاع ما أخذ وإتمام فعل منعكس.

وبعد زمن تتحد هذه الكلمة الملفوظة على هذه الوجه مع الصورة البصرية لذاك الشخص الذي يقدم الغذاء والعناية والدفء وتأخذ كلمة "ماما" معناها الحقيقي.

والمجال أضيق من أن يسمح لنا بالإسهاب في تحليل آلة النطق الواسعة التركيب وما وصل إليه الأطباء بدرسهم أنواع الشلل الذي يصيب آلة النطق ويعطلها. ولولا هذا الدرس لما كان للإنسان فكرة عن كيفية نطقه أو

إرادته أو تفكيره أو عمله[٥].

هنا يحق للقارئ أن يتساءل: والنفس ما تصنع بها. وإلى أي حضيض من المادة نتهادى إذا كنا لا نرى في العقل سوى آلة أفعال منعكسة معقدة التركيب، كثيراً أو قليلاً؟.. نعم قد يقع الطبيب تحت المشرط على مناطق مركزية وألياف اشتراك يساعدنا سير عملها على فهم حركة القوى العقلية أكثر وأوضح مما كان يفهمه آباؤنا، ولكن أما للإنسان نفس خالدة، أم كل شيء مقيم في هذه الخلايا الدماغية، في هذه العصابين التي أطلعنا العلم على شكلها وصلاتها ووظيفتها؟ ...

قلنا قبلاً في تعريف الشخصية إنها ذاكرة الإحساسات القديمة المتنبهة بالإحساسات التي تضاف إليها على الدوام أي أن شخصيتنا مؤلفة من أميال ورثناها ومبادئ اكتسبناها بواسطة الحواس التي هي المنبع الوحيد للمعرفة لأنه لا يمكن أن يكون لنا علاقة بالعالم في غير ما تقدمه شبكية العين وأطراف أعصاب السمع والشم والذوق وتلك الباقة من الأعصاب الموجودة في جلدنا وأغشيتنا وعضلاتنا ومفاصلنا وأوتارنا. كل هذه الأعصاب الناقلة للحس المنتشرة على سطح الجسم لا يمكنها أن تحمل إلى دماغنا سوى اهتزازات عصبية نسميها إحساساً باللون أو بالشكل أو بعلو

---

(٥) هذا الشلل قد يحدث بنزيف دماغي يعطل منطقة بروكا M. وإذا تعطلت منطقة النظر "للكلمات" لا يمكن إدراك معنى ما يقرأ. وإذا أصيبت منطقة السمع أي A فقد تعطل سمع الكلام. وقد عرف اليوم أن تعطيل منطقة نظر الكلام يكفي ليمنع الكتابة وكذلك اختلال السمع الكلامي يؤثر في كل آلة النطق. ويمكن القول أن كل مقطع من كلمة من أية لغة نتكلمها له مركزه في إحدى الخلايا القشرية في A أو V أو M أو E.

الصوت أو نبرته أو بالشم، أو بالذوق، أو بالثقل، أو بالتماسك، أو بالحر، أو بالبرد، أو بالحركة أو بالسكون فيبدو المرء كأنه غارق في أوقيانوس من الاهتزازات المختلفة التي لا تلبث أن تتحول عندما تلامس أعصابنا إلى اهتزازات عصبية وتصل على هذه الصورة إلى قشرة الدماغ مركز الوعي والإدراك.

هذه الاهتزازات التي تلم بنا وتغيرنا أبداً من حال إلى حال هي كل ما نعرفه عن العالم. اهتزازات ماذا؟ ربما اهتزازات المادة. نقول ربما، لأننا لا نعرف عنها شيئاً فكل علمنا من الأشياء مقصور على الصفات الخارجية أي الشكل واللون والرائحة والطعم وما إلى ذلك ولا مرجع لنا سوى حواسنا وحواس أشباهنا من الناس.

إلى هنا ينتهي بنا العلم وهذا آخر ما هدانا إلى معرفته وليس في وسعه الجزم إذا كانت الطبيعة خلقة إله قادر لا تزال عنايته ساهرة علينا، وإذا كانت هذه الخلايا التي تتألف منها قشرتنا السنجابية تطيف عليها نفس حرة خالدة. لا الله ولا النفس في متناول الحواس لأنه ليس لهما صفات المادة.

يقول "غوته" في جواب فوست على توسلات مرغريت الطافحة بالتقوى والحنان: "من يجسر أن يسمى الله ويقول إني أؤمن به".

ويقول موسه في قصيدته "الأمل بالله".

إذا كانت السماء قفراً فنحن لا نجدف على أحد

وإذا كـــان مــــن يســـمعنا فليشـــــــملنا برأفتـــــــه

ويقول المعرى:

زعـم المـنجم والطبيـب كلاهمـا ألاّ معـاد، فقلـت ذاك إليكمـا

إن صـح قولكمـا فلسـت بنـادم أو صـح قـولي، فـالوبال عليكمـا

على أن هناك علماً آخر غير العلم الطبيعي هو اللاهوت وله طرقه الخاصة التي تفسح له المجال لإثبات بعض الحقائق بالوحي أو الإيمان فإذا لم تختلط الطريقتان ولم يتعد الواحد منهما على الآخر فالعلم والدين يمكنهما أن يعيشا جنباً إلى جنب لأداء مهمتهما السامية، وتخفيف آلام الإنسانية. تبين لنا مما مر أن علم النفس قد تقدم بين أيدي علماء الفسيولوجيا وأطباء السرير تقدماً محسوساً واكتسب من الدقة ما لم يكن يحلم به لنصف قرن خلا.

ومذهب المركزيات الدماغية ومعرفة الخلية العصبية وصلابتها ودرس التأثيرات النفسانية وتنوعات قوة العمل الدماغي جعل من علم النفس علماً صحيحاً منظماً بل يحق أن نسميه بعدل أجمل فصل من فصول التاريخ الطبيعي.

الطب والأدب

(التدخين والأدباء – الذكاء والجنون – تولوز – مورو – لامبروزو – مكس نوردو – النقد الأدبي والطبيب – الروية والبداهة. البحتري. أبو العلاء)

وهذا باب آخر ينفتح أمام الطبيب ليفسح له مجال العمل في ميدان الخدمة العامة. لقد تدخل في التاريخ فخلع عليه نوراً جديداً بما كشف من أسرار السحر والشيطنة وقراءة الغيب، وتدخل في القضاء فغير وجهة النظر في المسئولية، فلم لا يتدخل في الأدب والفن؟

في صدر هذه المئة قام الدكتور تولوز في فرنسا بعمل جديد في نوعه هو دراسة الكاتب الشهير إميل زولا دراسة طبية نفسية لإظهار الصلة الموجودة بين ما يسمونه النبوغ أو العبقرية وما يمنى به الجهاز العصبي من الاضطراب والخلل في صحته ونظامه. وكان ذلك بدء عهد جديد للنقد العلمي لم يكن معروفاً من قبل، فاهتمت به الصحف والمجلات ولا سيما جريدة الفيغارو والمجلة الجديدة والطب الحديث. والقصد من ذلك التدخل في حياة الكاتب الصحية والعناية بدماغ الأديب والمفن بحجة أن أكثر العاملين في حقل الأدب والفن هم ملك الأطباء لأنهم من المرضى، مرضى الإرادة والأعصاب. والذي يؤيد هذه النظرية ما يبدو من آثار التقهقر

البدني والعقلي في السواد الأعظم منهم، بما يشكون من سوء الهضم والصداع وتهيج الأعصاب المستمر، إلى عدم الاستقرار الناتج عن السهر والإجهاد وقلة المبالاة والإفراط في شرب المسكرات وفي التدخين وضيق ذات اليد أحياناً، إلى سرعة التأثر وقلة الصبر وفقدان الثقة بالنفس، إلى بعض الأطوار الغريبة أو الشاذة والأوهام والعادات المستحكمة فيهم.

ولا أحاول في هذه العجالة التبسط في شرح هذه العوامل المتعددة فقد أصبح أثرها في الأديب حقيقة لا يختلف فيها اثنان غير أني أستميح القارئ الوقوف حيناً عند التدخين الذي لا يزال موضع الحيرة والشك عند أرباب القلم فكان له منهم أنصار وكان له منهم أعداء. هذه الذبالة التي شغلت الناس منذ القرن الخامس عشر فحرمها البابا أرسانيوس السابع وحللتها كاترين دي مدسيس، واستعملها فريق ألهية وسلوى وفريق تجارة ومورداً للربح، وألفت الجمعيات لمحاربتها فكان لها كالدين أبطال وشهداء، كانت ولم تزل على الرغم من الاضطهاد الذي تعانيه في بعض الأندية والمجتمعات قابضة على رقاب الناس وخصوصاً رجال الفن والأدب وإذا نجا البعض منها مثل غوته وهيكو وإسكندر ديماس الأب، فإن عشاقها كثيرون كاللورد بيرون ومريمه وأوجين سو وزولا وجورج ساند، وموسه، وبانفيل وسواهم — ولا أذكر سوى كتبة الإفرنج لأن المراجع فيما يختص بحياة أدبائنا لا تزال قليلة لدينا.

كان التدخين أبغض شيء إلى هيكو وغوته حتى إن الأول لم يمكن يسمح لأحد أن يدخن في بيته، وكان يقول: التدخين يحول التفكير إلى أحلام، ومن يبدل الحلم من الفكر كمن يخلط بين السم والغذاء. وكانت

صحته وقوته الجسدية من وراء الغاية حتى روى بعضهم أنه كان يأكل ليمونة البرتقال بقشرتها. أما غوته فكان يقول ثلاثة أشياء أكرهها وأولها الدخان... وكان ذا إرادة جبارة وحياة يحسد على توازنها وصفائها. وإذا كان في كتابه "آلام ورتر" عرف أن يصوّر اليأس أبدع تصوير فكشاهد نقاد يحسن الملاحظة ولكنه يظل محلقاً في الأجواء فوق ما يخلق قلمه وفوق شقاء البشر.

ولكن لا يحق لنا أن ننسب هذه الفضائل فيهما من صحة جسد وصفاء ذهن إلى جهلهما لذة التدخين فهذا زولا وكوبه وكاتول مندس ودوده من المدمنين عليه وقد وفوا قسطهم للأدب دون أن يؤثر في إنتاجهم العقلي أو في صحتهم. على أن غيرهم كان يشكو من السيكارة حتى اضطر إلى تركها، وكان تيودور دي بانفيل وهو من أكبر المدخنين يقول: "لا يمكن أن يكون المدخن ذا طموح وعزيمة لأن الدخان أحلام مفسدة وفراغ قاتل" وكان اللورد بيرون من أشد الناس يأساً وأقلهم صبراً وأضعفهم عزماً وأسهلهم خضوعاً لتيار الحياة الجارف حتى إنه ألبس كل أبطاله حلة شقائه ويأسه. وكان موسه وجورج ساند على غير ما يريدان من راحة الحياة، وبودلير مثال التعاسة والتناقض يغني اليأس والعدم وأكاذيب الفردوس حتى الفردوس المصطنع الذي كان يجلبه لنفسه، على أن هذا الأخير لم يكن يكتفي بالدخان وحده...

أما رأى الطب في التدخين فيختلف حسب الأطباء لأن كثيراً منهم لم يستطيعوا التخلص من سلطان هذه العادة فسدل الشوق والرغبة عندهم على سيئاتها وتساهلوا كثيراً في حكمهم عليه إلا أنهم مهما اختلفوا في

كيفية تأثيره ومدى هذا التأثير فقد اتفقوا جميعاً، وهذا ما أردت أن ألفت إليه نظر القارئ أن الدخان مؤذ لكل كاتب يعرض نفسه للإجهاد فيسوقه إلى الوهن والضعف ولا سيما في الذاكرة وقوى التناسل.

على أن زولا الذي اتخذه الدكتور تولوز موضوعاً لدرسه الجديد لم يكن مصاباً بداء عصبي ولا يحمل أدنى ظاهرة من خلل العقل أو الصرع أو الهستريا، ولم يعدم الدكتور تولوز مع ذلك وسيلة للقول إن جهازه العصبي كان على غير ما يرام من الصحة. ويعزو ذلك إلى الوراثة ثم إلى الإجهاد العقلي الطويل، ذلك الإجهاد الذي يهدم شيئاً فشيئاً النسيج العصبي الدقيق البناء. غير أنه لم يجد علاقة بين هذه الحالة وذكاء الرجل ولا يرى أن حالته العصبية كانت ضررية لإنتاجه الفكري بل هي بالأحرى نتيجة لهذا الإنتاج لا سبباً له.

وقديماً عرف أرسطو أن أكثر مشاهير الرجال مصابون بالسوداء ولأيامنا هذه لا يزال الأطباء مع اعتراف بعضهم بوجود استعداد ذاتي للتهيج عند المفكرين، يعتقدون أن الحالة العصبية المتقلقة هي نتيجة للعمل العقلي وليست من بواعث النبوغ.

وبخلاف ذلك رأى الاختصاصي "مورو" فهو يدعى أن عدم التوازن في حالة الأديب الصحية هي أصل نبوغه، وأن العبقرية ليست سوى ظاهرة من ظواهر تهيج الدماغ إلى أقصى حد، وأن الإلهام الشعري والجنون صنوان.

وجاء بعده لومبروزو فقال إن العبقرية ضرب من داء الصرع وقد ذاع

كتابه "الرجل العبقري" وترجم إلى لغات كثيرة وكان له في حينه شهرة بعيدة، شأن كل جديد غريب النزعة. إلا أن عمر هذه الشهرة لم يطل لأن الشواهد والأدلة التي جمعها لتأييد زعمه كانت بعيدة عن الدقة، وفي كتابه قصص وحكايات وأخبار ليس عليها مسحة من الحقيقة العلمية بل هي قائمة على قال فلان وقيل عن فلان. وأحياناً كان يكتفي بالنظر إلى رسم الرجل ليحكم عليه ويشخص علته.

ثم جاء مكس نوردو في كتابه "التقهقر" فادعى أن كل الفن الحديث صائر إلى الانحطاط والزوال. وقد قسم الإنتاج الفني إلى مراتب مختلفة وضع على كل منها رقماً يحمل اسم علة عصبية، فحشد هنا مصوراً، وهنا كاتباً وهنا موسيقاراً، وسمى كبرياء النفس الشرعي هذيان العظمة، والسوداء هذيان الاضطهاد والسهو البرئ غيبوبة الصرع، والنظم خلطاً، والإيقاع ضرباً من الهوس، وحدة الطبع ثورة جنون، واليأس نوعاً من الاحتضار.

ولا يخفى ما في هذا من المبالغة والإغراق والخروج عن جادة المنطق. نعم إن ما يسمونه نبوغاً قد يظهر في الأسر القديمة المنهوكة التي لا تخلق سوى سلالة ضعيفة قد يأتي فيها الشاذ الغريب. ولكن الطبيعة لا تحب الشواذ كما يقول "ريشه" في مقدمته لكتاب لومبروزو. وعلم الحيوان ينبئنا أن بعض سلالات من الحشرات تموت فوراً عقب الإنسال. أو ليست هذه شرعة الحياة الدنيا بوجه ما؟ إن الشجرة عندما تهرم فيجف ماؤها أو يقرب من الجفاف تُطلع في وقت واحد على الغصن الواحد ثماراً هائلة في الجمال وأخرى من سقط المتاع. وهكذا الإنسانية.

والدكتور تولوز في كتابه عن العلاقة بين السمو الفكري والاضطراب العصبي لا يؤيد لومبروزو بل يطالب بشواهد طبيعية بالدرس على الأحياء ممن يقبلون بأن يكونوا موضوعاً لهذا الدرس. وهو لم يتوخ في كتابته عن زولا درساً انتقادياً بل نفسانيًّا وربما رأى أن الوقت لم يحن بعد لفتح هذا الباب أي النقد الأدبي البسيكولوجي، ولكنه أراد وضع أسس له، ذلك النقد الذي يقوم به الطبيب النفساني بدرس دماغ المبدع وتحليل ما أبدع. ومن رأيه أن هذا النقد يختص برجل العلم وحده لأن الغاية من النقد تفسير الكتاب بالكاتب أو الصورة بالمصور ووضعه في مرتبته من حيث الجمال وعلم الجمال. وعلم الجمال فرع من البسيكولوجيا يخضع مثلها للقواعد فيها. فالقصة أو الرسم أو النقش عمل أو على حد تعبير زولا نفسه "زاوية من الطبيعة ينظر إليها من خلال المزاج" ومن أحق من رجل العلم بإقامة الصلات بين هذه الزاوية ومزاج الناظر إليها، أي بين العمل والعامل في تركيبه جسداً وعقلاً ليحلل الأسباب الشخصية التي أوحت به، مستعيناً بعلم وظائف الأعضاء على درس تكيفات الذهن في طريق الخلق والإبداع.

قد يعترض أن النقد الفني لا يكفيه ذهن متعود على أبحاث النفس ووظائف الأعضاء بل يستلزمه أيضاً علماً واسعاً بالموضوع وهذا لا يتسنى لأي كان. نعم إن الحكم على عمل فني كصورة أو قطعة موسيقى أو شعر أو غير ذلك يقتضي معرفة واسعة بالرسم أو الحفر أو الإنشاء وما إليه، ولكن الطبيب الملم بهذه الفنون أو ببعضها يكون أقدر من سواه على النقد العادل المحكم الصحيح؛ وإني وإن لم أكن على رأي الدكتور تولوز من حصر النقد الأدبي في الأطباء فلا أنكر أن النقد فن مستحدث لم يتناوله

الأقدمون، فهو إذن ذو آفاق جديدة يستطيع الطبيب أن يبسط جناحيه لينفض جوها ويسبر مجاهلها فيرسل إلى صميم الكتاب بصره وينفذ في معانيه كما تنفذ الأشعة المجهولة في الأجسام، وكما يوجد طبيب شرعي له مكانه وضرورته يحسن أن يكون هناك طبيب أدبي يحلل الأدب في بوتقة كيميائية لأن الطبيعة والأحداث النفسانية وقوى العقل وأعمال الفن كلها تحتاج إلى أن تدرس درساً علمياً مبسوطاً.

ولا أريد الرجوع بالقارئ إلى تاريخ النقد ونشأته وتطوره وحروب الكلام التي أثيرت من حوله في الغرب، وانقسام النقاد وتباين طرقهم، فذلك خارج عن موضوعي. ولكن في هذه الأيام التي كثر فيها الخلط وضاعت مقاييس الأمور وتعددت مذاهب الأدب وأصبح النقد مسيراً في كثير من الأحايين بالعاطفة فلا يعرف القارئ من يصدق وبمن يؤمن، أصبح من الضروري – وقد أخذنا إلى النقد سبيلاً – أن نجعل عليه مسحة علمية تكفل له التماس الحقيقة من مظانها. فإذا ما تدخل الطبيب في نقد الأدب فلكي يتفحص الأذهان كما يتفحص الأبدان فلا تنحصر دراسة العمل الفني أو مطالعة كتاب ما بالشعور باللذة أو الملل. بل تتعداه إلى تشخيص حالة الكاتب والفنان الدماغية وإظهار قيمة بدعته وما فيها من نفع ينتظر أو خطر يجب تلافيه قبل أن تسمم به روح القارئ.

ولا يغرب عن بالنا أن النقد العلمي قليل في أدبنا العربي. وإذا وضع له السلف – كقدامة وابن رشيق وأبي الحسن الآمدي وغيرهم – قواعد فهي قواعد خاصة غلبت فيها على مذاهبهم الأفكار الجزئية والمباحث الضيقة من نقد المفردات والألفاظ وسرقة المعاني، لولا ما نجد عند الجرجاني

والمطرزي وأبي الفرج الأصبهاني في تضاعيف الأغاني من طلائع النقد الصحيح. وقد يجئ النقد عرضاً وفيه شيء من السخرية والدعابة كما كان يفعل الجاحظ. أما الذين ألموا به على الطرق الأوربية المستحدثة فلا أجد منهم سوى الشدياق واليازجي بالأمس القريب. وهناك طائفة من الأدباء المحدثين أخذت تستشرف هذا النقد المبني على المبادئ الجديدة ولكنها لا تزال في خطواتها الأولى.

وإني أعتقد أن علم وظائف الدماغ كما انتهى إليه الفسيولوجيون في أواخر القرن الماضي يعبد لنا الطريق للتعرف إلى بعض حالات الذكاء والتمييز بينها. وربما حان لنا أن نتساءل إذا كان الشاعر حقيقة — والمراد بالشاعر هنا رجل العمل، الذي يبتكر ويبرز إلى الوجود شيئاً جديداً قد يكون غناء أو رسماً أو قصة أو مأساة أو اكتشافاً في الصناعة أو العلم — هو أسمى في نظر الناس وإعجابهم من الذي يأخذ على عاتقه انتقاده والحكم عليه مؤثراً على الابتكار وظيفة التحليل والمقابلة بين منتوجات الفكر لتفهمها واستخلاص أفكار عامة عنها.

هذا ضرب من الموازنة بين اللاوعي والوعي أو البداهة والروية عندما ألقى بيار لوتى رده على خطبة استقباله في الندوة الفرنسية "الأكاديمي" حملت الجرائد عليه حملة نكراء لأنه تجرأ فقال: إنه لا يفتح كتاباً ولا يطالع أبداً. على أنه في اعترافه هذا وضع الحد الفاصل بين الطريقتين، وأظهر أن شاعريته لا تخضع لغير مزاجه، ولا تعبأ بمذاهب الأدب ومناهج الأدباء ولا تتقيد بوحي مدرسة أو معلم، فهو يكتفي بأن يعيد إلى العالم بأجلى بيان وألطف أسلوب التأثيرات التي يتلقاها من العالم.

وليس لوتى الوحيد الذي استطاع أن يغني نفسه بنفسه، فقد ذكر كلاريتي في كلامه عن هيغو في منفاه الطويل أنه لم يكن في مكتبته شيء يذكر فقلما كان هذا الشاعر العجيب يطالع بل كان يكتفي بأحاسيس الكون وعناصر الاهتزازات القوية فيتملاها مصافحة وعناقاً ليكبرها دماغه ويخرجها بشكل هائل فيه روعة الإبداع وقوة الألوهة.

وكان زولا أيضاً قليل المطالعة أو بالأحرى لم تكن مطالعته ليحشو رأسه بالمعارف ويقدم وقوداً لآلته الدماغية بل يستمد الشواهد اللازمة لدعم آرائه.

وكذلك بلزاك لم يترك له عمله العظيم متسعاً من الوقت لقراءة ما يكتبه سواه. هؤلاء كلهم لم يكونوا يهتمون بنتاج الآخرين، وطريقهم في الخلق واحدة، فهم كالمصورين يستقون مما حولهم ومن الطبيعة رؤى ليرجعوها محلاة بالفن مدموغة بطابع مزاجهم الخاص.

هؤلاء رجال البداهة تختلف طريقتهم عن النظريين المتفلسفين الحاملين في رؤوسهم أكداساً من المعارف المختلفة مثل رنان، وسنت بف، وأناتول فرنس، ولمتر، وبارس وسواهم. ولو أردنا أن نبحث في العربية عما يقابل هذا، لتمثل لنا البحتري الشاعر المطبوع والمعري المفكر الفيلسوف. وحسبنا إيضاحا الرجوع إلى بعض مبادئ فسيولوجيا الدماغ؛ وهذا الرسم البسيط الذي تعرف إليه القارئ فيما مضى (راجع المقال السابق) .

لنفترض أن أمامنا دماغ البحتري في ساعة أتاه فيها نعى رجل خطير فأراد أن يرثيه فماذا يكون؟

إن الاهتزازات العصبية التي أحدثها هذا النبأ تأخذ طريقها عن أداة السمع حتى نهاية العصب في قشرة الدماغ في A مركز السمع، وبما أن هذه المنطقة لا تزال شبه عذراء أي قليلة الأثاث الذي يجلبه الدرس فالإحساس الوارد عليها يحتفظ بكل طراوته وقوته الأولى ويحاول أن يصير إلى عمل – كما هي العادة في كل إحساس طارئ – ليخرج من الدماغ كما تخرج هذه الأشياء من دماغ الشاعر في شكل إنشاد أو لغة مكتوبة.

وفي اللحظة عينها التي يصل فيها هذا الاهتزاز إلى الدماغ تشرق رؤيا جديدة تضئ نواحي تلك المنطقة فتستحضر الإشارات والرموز والأحرف والكلمات التي نستعملها عادة للتعبير عما يؤثر في حواسنا.

وعلى هذا الوجه يتمشى الاهتزاز العصبي من A إلى E مركز الكتابة أو M مركز النطق، فإذا بالشاعر يخط على القرطاس أو ينشد التأثير الذي تلقاه بكل جماله الأول وكل حرارة قوته المتدفقة فيطلع علينا بهذه القصيدة.

انظــر إلى العليــاء كيــف تضــام ومــآتم الأحســاب كيــف تقــام؟

وهي قصيدة جميلة ولكنها كسائر مراثي الشعراء تجمع بين ذم الدهر ومدح الميت ونعي المجد والشجاعة والكرم واستدرار الغيث على قبر الراحل إلى آخر ما هنالك من الصور والمعاني التي تمر في مخيلة الشاعر في حلة لا تخلو من الجمال الطبيعي وفيها من روعة الموسيقى الشيء الكثير.

ولنفترض الآن أن نبأ كهذا طرق مسامع المعري فإن إحساساً شبيهاً يتمشى إلى A ولكنه لا يجد هناك منطقة عذراء أو شبه عذراء بل بقعة

حافلة بالسكان لكثرة ما تجمع فيها من المبادئ الفلسفية والتذكارات والمعارف وعلوم الحياة التي كان يعني المعري فيعوقه هذا الزحام عن السير ولا يبلغ منطقة النطق – الوحيدة التي يمكنه الخروج منها لأن المعري أعمى لا يكتب – إلا بعد أن توقظ الرؤيا من حولها أشياء كثيرة وتذكارات مماثلة وأحاسيس قديمة تمت إلى كل سبب من أسباب الحياة والموت فيطلع علينا الشاعر بقصيدته الخالدة:

غـير مجـد في ملـتي واعتقـادي نـوح بـاك ولا تـرنم شـاد

والفرق واضح بين القصيدتين.

ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نكثر من الأمثال في هذا الموضوع.

وخلاصة القول أن لكل من الاتجاهين الإبداع البديهي والفلسفة التأملية عظمته. وإذا رجعنا إلى النقد وجدنا أن كثيراً من كتاب الغرب بدأوا به حياتهم الأدبية ثم انصرفوا إلى كتابة القصص والروايات وما شاكل كأن صوتاً خفياً كان ينذرهم أن التفلسف أدنى من التوليد.

على أن النقد في حد ذاته عزيز المطلب جزيل الفائدة وهو فتح جديد في الفكر البشري بخلاف الفن فهو قديم وأعظم مثال اليوم لا يفوق فيدياس وأعظم شاعر لا يكسف أوميروس.

نعم قد نجد حيناً بعد حين في الصحف والمجلات نقداً لا يسمو في جوهره إلى مرتبة الموضوع المنقود ولكن هذا لا يدل على فساد النقد بل على ندورة النقاد الحقيقيين. كما أن النقاد الخليق بهذا الاسم قد ينزل

أحياناً من القمة التي هو فيها فيتبع هواء النفس إرضاء لهذا أو طعناً في ذاك.

على كل فإن الجمع بين الطريقتين أجدى وأخصب وبما أن الوظيفة تخلق العضو فالناقد الذي يريد الخلق والإبداع لابد أن يصل إلى غايته فينتقل من الحكم على كتابة الآخرين إلى الإنتاج وتقديم ما يكتب غذاء لغيره من النقاد إلى أن يأتي يوم يظهر فيه عبقري جبار جهول ظلوم فيبهر الناس بقوته ويخلق من حوله جنداً من النقاد ينصرفون إلى تفهم هذه الأعجوبة التي ولدتها الأيام.

الطب والشعر

يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أنه لا صلة بين الشعر والطب، والمعروف المتداول أن من يتعاطى صناعة الطب هو أبعد الناس عن الاهتمام بالشعر أو الإجادة فيه. ذلك لأن الطب علم وضعي يعلم صاحبه أن لا يؤمن بغير اللمس ولا يرى إلا بعين الرأس، في حين أن الشاعر لا يعرف التقيد بالحقائق الملموسة بل يظل عبداً للخيال، هائماً في فضاء من شرود الفكر لا حد له. قال هيكو: الشاعر طائر الإنسانية، يغادرها من حين إلى حين سابحاً في سماء التصور، بل إن الطائر قد لا يعود من رحلته بخلاف الشاعر الذي يرجع ليصلح، فهو بين الجنحين يعد من الملائكة لا من الطير.

فكيف يمكن التوفيق بين هذا الحاضر الغائب، المحمول بالفطرة على أجنحة الخيال للتغلغل في أعماق الغيب فلا يرى إلا ما يمثله له التصور ولا يحس إلا بما ينزل عليه الإلهام، والطبيب السالك مضيق الحقائق العلمية، المقيد بروابط الحس والمادة، الناظر إلى الأسباب ومسبباتها، الراجع في كل ما يعمل إلى التعليل المنطقي والفلسفي، الخاضع لما تراه عيناه وتلمسه يداه وتسمعه أذناه؟

لا ريب أن هذا الفرق الظاهر بين الاثنين في طريقة التفكير والعمل هو الذي خلق هذا الاعتقاد الراسخ في أذهان العامة وبعض الخاصة من أن الطب والشعر لا يجتمعان وإن اجتمعا فلا يكون الإنسان فيهما على مستوى واحد من حيث الإجادة والنبوغ.

ولكن إذا تعمقنا في الحقيقة وجدنا ما يناقض هذا الزعم وينفيه وبدا لنا من شواهد التاريخ والتقاليد وتركيب الإنسان ما يدلنا على وجود نسب عريق بينهما.

وجد الشعر على الأرض منذ وجد الإنسان، وكان له في العصور الأول عظمة الآلهة فتناول كل مناحي الحياة فكان الشاعر بطلاً ومطرباً ونبياً وطبيباً. ويقال إن الذين استخرجوا صناعة الطب من أهل موسيه وأفروجيه هم أول من استخرجوا الزمر فكانوا يشفون بالألحان والإيقاعات آلام النفس وآلام البدن. ولما تقدم الإنسان قليلاً في خبرته وتجاربه ابتعد الطب عن الشعر ليدرس فعل الحشائش والعقاقير وتأثيرها في الأجسام والعلل، دون أن يطلق بتاتاً مصادر الإلهام والرؤى والأحلام ولهذا نرى في كتب الأقدمين أنهم كانوا يعلمون الطب والشعر معاً، كما وقع لأخيل بطل الإغريق إذ تلقى من الساحر كيرون الموسيقى والطب قبل أن يتلقى علم السلاح.

والظاهر أنهم اتبعوا في ذلك إلهام الفطرة لأن الإنشاد يفعل في السامع فعل المسكر والمخدر فيبدد الغيوم عن سماء النفس ويفرج الكرب عن الصدور وينسى إلى حين هموم الفكر وعذاب الجسم. وفي التوراة أن روح

الرب فارق شاوول وزعجه روح شرير من لدن الرب فأرسل في طلب داود. وكان إذا اعترى شاوول الروح الشرير يأخذ داود الكنارة ويضرب بيده فيستريح شاوول وينتعش وينصرف الروح الشرير عنه.

فضلاً عن ذلك فإن الغاية من الطب والشعر كانت واحدة وهي خدمة الإنسانية، فالطبيب يهتم بحفظ الصحة وإصلاح ما اختل منها، والشاعر ابن الآلهة يغني لإبعاد نقمتها وجلب رحمتها وله مكانه المحفوظ على موائد الملوك وفي الهياكل أيام الأعياد، وفي أسفاره الدائمة، كأنه موكل بفضاء الله يزرعه، حاملاً إلى الناس أسمى التعاليم من حب الواجب والعفو عند المقدرة والدعوة إلى الفضيلة.

أين هذا من حالة شعرائنا اليوم وما وصل الشعر إليه على أيديهم؟ فما خلا القليل من الذين حافظوا على جلالة ماضيه أو عرفوا أن يجددوا فيه، فالشعر عند فريق تسفل واستعطاء، وعند فريق سخافة وهراء، وعند فريق هذيان واستهواء.

عفواً، لقد كدت أشرد عن الموضوع. على أنه إذا تركنا هذه الاعتبارات جانباً من حيث العلائق التاريخية والتقليدية فلنا في فسيولوجيا الدماغ شاهد أثبت على القرابة الموجودة بين الشاعر والطبيب، أعني بذلك قوة التصور والخيال.

ما هو الخيال؟ جاء في التعريفات: الخيال قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة. وفي الكليات: الخيال مرتع الأفكار كما أن المثال مرتع الأبصار. هذا الخيال يستخدم الذاكرة

كآلة له فيخترع من الأمور المحسوسة أشياء معدومة. كقول الشاعر:

وكـــأن محمــــر العقيــــق إذا تصــــوب أو تصــــعد

أعــــلام ياقـــوت نشــــرن علـــى رمـــاح مـــن زبرجــد

فإن هذه الأعلام وهذه الرماح لا وجود لها في الواقع ولكن الشاعر تخيلها في ذهنه فشبه بها العقيق. بالخيال يخلق الشاعر أبطاله وآلهته فيراها في هدير الماء وغضب السماء كما يراها في ضياء القمر وتهادى الشجر. وبه يملأ القفر عمراناً ويعطي الجماد روحاً ولساناً. فهذا الخيال ضروري للطبيب كما للشاعر، وبدونه لا يرتفع عن المستوى العادي. وسواء وقف أمام سرير المريض يحاول تشخيص الداء بشتى الوسائل التي لديه من قرع باليد وفحص بالمنظار وتسمع بالأذن، أم كان في مختبره يسعى إلى اكتشاف خصائص المكروب، أو خلا إلى نفسه يفكر في تعليل الحوادث المرضية وفك طلاسمها، فالخيال أكبر معين له على النجاح.

إن قوة التصور والخيال هي كتألق المعادن إشعاع الفكر البشري على الإطلاق. فكما أن اندفاع ذرات النور من الراديوم لا ينحصر فيه بل هو اليوم، كما قال كوستاف لبون، من صفات كل جسم حتى الحجر البسيط، على شرط أن تفعل فيه المؤثرات اللازمة لذلك، فالخيال من صفات كل دماغ، وقد رافق الإنسان الأول قبل أن يعرف الكتابة فكان يدفعه إلى تصوير أفكاره وترجمة شعوره على الهياكل المنقوشة والأنصاب المنحوتة وفي النغمات الصاعدة من قلبه ومن أوتاره. ولما انفتح أمامه طريق الكتابة والطباعة اندفق هذا السيل منصرفاً إلى القرطاس يرسم عليه ما يدور في

جمجمته الصغيرة من جمال وأحلام، مبتدئاً بالجن وما يلابسه من الأوهام منتهياً بالحقائق التي أقرها العلم في آخر الأيام.

ولولا قوة التصور والخيال لما اخترع أرخميدوس رافعة الأثقال، ولا اهتدى نيوتن إلى الجاذبية بواسطة تفاحة، ولا قدر لافوازيه على وضع دعائم الكيمياء الحديثة، وباستور على توهم الميكروب قبل الوصول إليه. وكثير من العلماء لضعف هذه القوة أو كمونها فيهم مروا من أمام الأسرار الكونية دون أن ينتبهوا فبعدوا عن الاختراع وهو قريب منهم وكان لغيرهم حظ الوصول إلى ما قصروا عنه.

وعلى ذكر باستور والميكروب أريد التنويه بأمر فيه مفخرة للعرب وهو أن الرئيس ابن سينا الطبيب والشاعر أدرك وجود الميكروب قبل باستور بعصور، فذكر في تعليله عن بعض الأمراض إمكان وجود أجسام صغيرة حية لا تراها العين وهي التي تسبب الداء. فلم يبق إلا خطوة، لو قدر لابن سينا في تلك الأيام ما يتمتع به عصرنا من وسائل التنقيب والامتحان لمشاها وكان السابق إلى هذا الاكتشاف العظيم الذي أراه خياله الواسع بصيصاً من نوره.

فالشعر إذاً لا يتعارض والطب بل ربما كان له ظهيراً بما يستطيع الطبيب الواسع الخيال أن يصل إليه، كما أن الشاعر يستفيد من إلمامه بالموضوعات الطبية والحقائق الفسيولوجية إذ تنفتح لديه آفاق جديدة بما يرى حوله من الآلام ويتعرف إليه من شقاء الأجسام.

ولا أدري وايم الله لماذا يمتنع على الطبيب أن يكون شاعراً ولا يمتنع عليه أن يكون نحاتاً أو مصوراً أو عالماً بالموسيقى؟ وعندي أن كثيراً من الأطباء شعراء وإن لم ينظموا لأن الشعر شيء والنظم شيء، وكم من الذين يقولون الشعر وهو براء منهم على حد القائل:

فقل أنا زان وما أنا شاعر.

التسمم بالحب

لا يستغرب القارئ هذا العنوان ويحمله على المجاز فالحب كالسم قد يؤثر في الأعصاب تأثيره فيها فيزيل رونق الشباب ويطفئ شعلة الذكاء ويخمد نار الهمة ويدفع صاحبه شيئاً فشيئاً في منحدر الضعف والخمول والشقاء.

وما كان للطبيب أن يتدخل في شئون الحب لولا أن الطب أحق من غيره بتحليل هذه العاطفة. نعم إن كتبة العصر قد أظهروا اقتداراً نادراً وعلماً واسعاً في درس القلب البشري غير أنهم لم يخرجوا عن دائرة الأمانة أو الخيانة وما وراءهما من لذة وألم ومسكنة وفلسفة وشعر وعزلة وتهتك.

عجباً، يقول الناس، الحب أشرف شيء على الأرض، أقدس عاطفة تختلج بين جوانح البشر، أبعد غاية يتطلبها الإنسان، مصدر لذاته، علة حياته، هو إذن سم.

عفواً أيها القارئ ما أردت التعميم وجل ما أرجوه أن تسير معي إلى آخر الطريق لتتبين الغاية مما أقول.

ليس الحب إلا قوة من القوى الطبيعية التي يستمدها جسمنا من احتكاكه بالعالم المحيط به، هذه القوى نوعان منها ما هو دائم العمل كالهواء والنور والحرارة وكهربائية الجو والدم الساري في عروقنا فهي تنبه فينا التغذية الخلوية وتواصل عمل الحياة.

ومنها ما هو وقتي كالحب غايته قضاء بعض حاجات الوجود وفي مقدمتها بقاء النوع.

يصادف الفتى في طريقه فتاة يروق له منظرها فتحرك فيه عاطفة الميل وحسبه بعد ذلك أن يراها أو يسمع صوتها أو يلمس يدها لتنتقل الاهتزازات العصبية إلى المراكز السامية وتتجمع في دماغه.

فالحب قوة من الدرجة الأولى بين القوى ولكنه سيف ذو حدين فكما أن من الخمر ما هو جيد يفرح قلب الإنسان وينير الذهن، وما هو فاسد يخلع عن الإنسان رداء الإنسانية، يوجد من الحب ما هو صحيح مفرح لا يعرف الألم ولا وخز الضمير، وما هو محزن مخجل كله تنهد وشكوى ودموع.

وليس هذا التقسيم بالنسبة لطبيعة الحب بل لطبيعة البشر، فإذا كان الإنسان قوي الدماغ صلب الإرادة منتظم الجهاز العصبي فالحب عنده يبعث على النشاط ويحفظ الصحة وصفاء الفكر ولا خوف عليه من التسمم به، كما لا خوف على من يشرب كأساً من الخمر الجيدة أن يصير سكيراً.

وبخلاف ذلك إذا كان ضعيف الإرادة قصير الحيلة سريع التأثر قليل الصبر والاحتمال فكثيراً ما يكون الحب وبالاً عليه يجلب العذاب واليأس ويفعل فيه فعل المورفين والحشيش وما شاكل.

وهأنذا أعرض أمام القارئ صورة من أعراض هذه السموم ليرى ما بينها وبين الحب من الشبه، وإن لم يكن مثلها خاضعاً لشرعة الكيمياء.

سواء أكان السم أفيوناً أم طباقاً أم كحولاً فنتائجه السيئة لا تظهر حالا كما أن لذته تكاد لا تذكر في بداءة الأمر. فإذا وقف المرء عند هذا الحد فقد نجا من الخطر، ولكنه في أغلب الأحيان لا يعدم مرغباً يدفعه إلى إعادة الكرة أولاً وثانياً وثالثاً إلى أن تأخذ طلائع اللذة بالظهور فالخمر تجلب السرور والمورفين يبعث على الراحة والسكون والتدخين يفتح أبواب الأحلام ويساعد الفكر على التوليد، فيشعر الإنسان لأول مرة بلذة الكسل والإفلات من قيود المسئولية وضعف الإرادة، ولا تخفى عليه حالته غير أنه لا يجزع لها لاعتقاده المقدرة على الوقوف متى أراد.

ولكن بعض الناس يتدخل فيما لا يعنيه فيتعرض له من يقول ناصحاً:

حذار يا صاح فإنك لا تعلم إلى أية هوة أنت صائر.

فيجيبه بهز الكتف مستهزئاً به، كيف يظنه سهل الانقياد إلى حد يتعذر عنده الرجوع عن مثل هذه العادة المستحدثة.

ومنذ ذلك الحين أي منذ وجد من ينبهه إلى ضلاله، تتغير أخلاقه فيميل إلى الكذب والتكتم فيدخن في الخفاء ويشرب في الخفاء ويأخذ المورفين في الخفاء ويتجافى أخاه الشقيق وصديقه النصوح، كل ذلك واعتقاده أن إرادته لم تمس بضعف فمتى شاء حكمها بالعادة وفاز علها.

غير أن العادة لا تلبث أن تتملكه، وما العادة إلا آفة الإرادة، أما هو فلا يحاول أن يدفعها عنه لأنه حتى الساعة لم يشعر بضررها بل لم يعرف سوى اللذة ومن الحماقة أن يحرم نفسه لذّتها.

ومع ذلك فهو يبتدئ يحس بالميل إلى الوحدة والاستسلام للتأملات والوقوف دون العمل، وبعد أن كانت الجرعة الواحدة تكفيه أصبح يستزيد منها لتخلع عليه رداء السكر اللطيف والنسيان العذب.

عندئذ يتجلى له خطر الموقف فيجزع ويعقد النية على ترك هذه العادة المحبوبة.. لا الساعة بل غداً أو بعد غد. وهكذا تمضي الأيام والشهور وكلما أراد الإقلاع عنها خانته الشجاعة فيؤجل ثم يعاوده وخز الضمير فيندم على تأجيله ويعود إلى الأمل أن يكون في غده أقوى منه في يومه للتخلص من هذا الأسر.

وعلى هذا الوجه يصير السم من لزوميات الحياة لا يستطيع بدونه عملاً، فلا يهنأ له نوم ولا أكل ولا مجلس بل يرى أن ذلك التنبه العصبي الذي تعوده بالتدخين أو الشرب أو الشم أصبح دون ما يحتاج إليه فيضطر إلى زيادة الجرعة ليحصل على النتيجة ذاتها وتأتي النتيجة أقل مما في السابق.

وحينئذ تظهر فيه أعراض التسمم بكل جلاء: اضطراب في الذهن وتقاعس في الهمة واصفرار ونحول وأرق وذهول وتسرع في الغضب والبكاء وانحطاط في القوى وكمش إلى الهرم الباكر.

في هذا الدور من التسمم إذا أراد الطبيب منع السم دفعة واحدة وقع فيما يحاذر لأن المدخن يصير عصبياً سريع الهياج ويصيب مدمن الخمر هذيان كالجنون ويتحول عاشق المورفين إلى طفل يبكي ويصيح ويتوسل.

ونهاية الأمر جنون أو انتحار أو مرض لا نهوض منه ولا شفاء.

هذه هي صورة موجزة لما يصيب الإنسان إذا استعبدته إحدى هذه العادات. والآن فليتأمل القارئ في حالة المحب إذا لم يكن من الأقوياء عقلاً ومزاجاً وإرادة.

البداءة كما قال الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام!...

ثم إذا جاء دور الكلام فكثيراً ما لا تظهر المرأة لعينيه بالجمال الذي أراد فيحادثها تأدباً ويعاشرها تفكهاً، ولكن العشرة تخلق العادة فيغير رأيه فيها إذ يؤانس من النفس ميلاً إليها ومن الخاطر حوماً عليها.

"ولكن بعض الناس يتدخل فيما لا يعنيه فيتعرض له من يقول ناصحاً: حذار يا صاح فإنك لا تعلم إلى أية هوة أنت صائر.

"فيجيبه بهز الكتف مستهزئاً، كيف يظنه سهل الانقياد إلى حد يتعذر معه الرجوع عن هذه العادة المستحدثة.

ومنذ ذلك الحين، أي منذ وجد من ينبهه إلى ضلاله تتغير أخلاقه فيميل إلى الكذب والتكتم فيسترق النظر ويغازل في الخفاء متجافياً كل نصوح على اعتقاد أن إرادته لم تمس فمتى شاء حكمها بالعادة وفاز عليها.

غير أن العادة لا تلبث أن تتملكه أما هو فلا يحاول أن يدفعها عنه لأنه حتى الساعة لم يشعر بضررها بل لم يعرف سوى اللذة، ومن الحماقة أن يحرم نفسه اللذة".

يقولون لي أحرم يرجع العقل كله وحرم حبيب القلب أذهب للعقل

"ومع ذلك فهو يبتدئ يحس بالميل إلى الوحدة والاستسلام للتأملات والامتناع عن العمل، وبعد أن كانت النظرة تكفيه والاجتماع الواحد يرضيه أصبح لا يستطيع الفراق ولا يتحمل الصدود".

يطول اليوم لا ألقاك فيه ... ويومٌ نلتقي فيه قصير

وصار جل همه أن يراها كل يوم وكل ساعة:

أبغى الأنيس فلا أرى لي مؤنساً ... إلا التردد حيث كنت أراك

عندئذ يتجلى له خطر الموقف ولكن بعد فوات الوقت:

ألا أيها القلب الذي قاده الهوى ... أفق لا أقر الله عينك من قلب

ولكن المحب لا يفيق فتظهر فيه أعراض التسمم من اضطراب في الذهن وتقاعس في الهمة واصفرار ونحول وأرق وذهول وتسرع في الغضب والبكاء وتمش إلى الهرم الباكر.

في هذا الدور يستفحل الداء ويستعصى فإذا صد الحبيب أو هجر أصبح المحب كالطفل يبكي ويستغيث ويصيح لا كما يصيح مدمن المورفين لأنه لم يعدم بقية حياء ولكن بالذلة ذاتها واليأس والخشوع.

فيا حبها زدني جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

هذا إذا لم يطلب السلو عن طريق المخدرات فيضيف إلى سم الحب سماً آخر ويصير على حد ما قيل:

تسلى بأخرى غيرها فإذا التي ... تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

"ونهاية الأمر قتل أو انتحار أو جنون".

يرى القارئ مما تقدم أن من الحب ما هو قاتل كالسم فويل لمن يقع فيه وليس له من الإرادة والعقل درع تقيه. وإذا حق لنا أن ننسب إليه أشرف العواطف وأسمى الشعور ونجعله معراج المجد ومهبط الوحي ومستشرف الإبداع فإنه أيضاً سبيل الذل والغيرة والسقام والخمول وضياع الشرف والوجدان ورحم الله ابن الفارض:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل

وليس ما ذكرته بالنادر الوقوع فقد كان للحب شهداء في كل مكان وزمان بل ربما زادت أضراره في هذه الأيام لما اتصل بنا من عادات التمدين فإن المغازلة المنتشرة بين طبقات الأمم ولا سيما الراقية منها والتي يسمونه بالفرنسية **flirt** إن هي إلا مفسدة وأذى، الدخول من بابها سهل ولكن الخروج عسير.

والحب أول ما يكون مجانة فإذا تمكن صار شغلاً شاغلا

ولو نظرنا من الوجهة الفسيولوجية لرأينا أشقى الحب وأبعده عن الأدب هو ذاك الذي يسمونه الحب الأدبي. هذا الحب الذي يفتخر به نساء العصر إذ يساعدهن على قتل الوقت من دون العبث بشرفهن فيبعثن الشرارة في قلوب الرجال ويتوهمن أنهن في مأمن من اللوم وحل من المسئولية.

برزن عفافاً واحتجبن تستراً وشيب بقول الحق منهن باطلُ

فذو الحلم مرتاب وذو الجهل طامع وهن عن الفحشاء حيد نواكل

كـواس عـوار صـامتات نواطـق لـبعض الكـلام باذلات بواخـل

يفعلن ذلك ولا يدرين أنهن يعاكسن نواميس الطبيعة وأنظمة الحياة ويمهدن السبيل إلى زعزعة أركان الاجتماع بما يتكاثر فيه من ضعفاء العقول والمجانين كما نقرأ عنهم في القصص والروايات:

يا نظـرة سـاقت إلى ناظـر أسـباب مـا يـدعو إلى حتفـه

ذلك لأن الحب يدخل في دائرة الأفعال المنعكسة. والمراد بالفعل المنعكس أن ما يدخل فينا عن طريق الشعور يجب أن يخرج عن طريق الحركة. أقرع مثلاً ركبتك عند الرضفة (أي الصابونة) فإنك تولد شعوراً من الألم أو اللمس البسيط. فهذا الشعور ينتقل إلى المراكز العصبية ويرجع منها حالاً بصورة حركة إذ ترتفع رجلك عند القرع بغتة ومن دون تدخل الإرادة. قس عليه الحب فإنك عندما ترى الحبيب يحدث مرآة اهتزازاً في شبكة العين، وتسمع صوته العذب فيحدث ارتجافاً في عصب السمع، وتضغط يده يدك فترتعش أعصاب أناملك تحت ذلك الضعف اللطيف، يتولد فيك شعور ينتقل إلى المراكز العصبية ليرجع منها بصورة حركة أيضاً. هذا الشعور لو أحس به المتوحش لكان الفعل المنعكس عنه هجوماً منه على المرأة وامتلاكاً لها، ولكن أنت المتمدن فإنك تأبى ذلك عملا بآداب الاجتماع فتملك إحساسك وتضغط على عواطفك وتتغلب على شعورك وتعالج الأمر بالصبر فانظر ما يلزمك من الجهد لذلك وما ينجم عنه من الضرر إذا تكرر وهو بلا شك يتكرر كل حين.

هل يعجب القارئ بعد ذلك إذا قلت إن الحب "أشرف شيء على الأرض" أقوى عاطفة تختلج بين جوانح البشر، أبعد غاية يتطلبها الإنسان، مصدر لذاته وعلة حياته، هو إذن سم؟

وإذا اعتبرناه سماً فهل في وعاء الطبيب علاج شاف منه؟ لقد تعود الكتاب والفلاسفة أن يذكروا عاهات الاجتماع دون أن يشيروا إلى مداواتها. فما قولك في طبيب يقول لعليله أنت مصاب بالسل أو السرطان والسرطان لا يشفى فانتظر آخرتك بصبر وشجاعة؟ ولكن التسمم بالحب ليس عضالاً بحمد الله ويمكن معالجته كما يعالج التسمم بالأفيون وغيره، أي بالامتناع والسلوان.

لا تقل كيف يكون ذلك فالصبر والمثابرة يذللان الصعاب، ومعاونة الصديق من جانب وإشراف الطبيب من الجانب الآخر يكفيان في أكثر الأحيان للحصول على نتيجة، ووسائل التلهية قبل النصائح وقبل المقويات لأنها تحيي ميت الإرادة إلى أن يقوم من النفس زاجر لها يعين على قبول المعالجة إلى أن يتم الشفاء فيقول مع الشاعر:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

تلك نظرة طبيب يحلل القلب الأدبي كما يحلل القلب المادي لا نظرة شاعر أو فيلسوف.

شيطان الظهيرة

هذا عنوان رمزي لا دخل للشياطين فيه. وقد رأينا فيما مر كيف أدخلوا قديماً الشياطين في الطب، وأسكنوها صدور المغلوبين على أعصابهم ضيوفاً غير محتشمة، فكانوا يعتقدون أن المصابين بداء الصرع أو الهستيريا مشيطنون ويحاولون شفاءهم بطرد الشياطين بغريب الوسائل والطرق (راجع كتاب كيف تغلب الإنسان على الألم. للمؤلف).

جاء في المزمور التسعين للنبي داود: لا تخش من هول الليل ولا من سهم يطير في النهار، ولا من أمر يدبر تحت جنح الظلام، ولا من شيطان الظهيرة. وقد فسر الشراح شيطان الظهيرة بالذي يغري الإنسان بالفساد ويحمله على الفسق بعد إفراطه في ملذات المائدة. واستعاره الروائي الشهير بول بورجيه للحب الذي يستولى على الإنسان بعد الأربعين أو الخمسين لأنه حب عنيد أعمى لا يعرف سلطة للواجب ولا حداً للعاطفة.

في هذا الدور من العمر بعد أن يبلغ الإنسان ذروة القوة ويشرف على منحدر الهرم، يصيب الوظائف التناسلية تغيرات لا عهد بها ويستولى عليها انحطاط تدريجي كثيراً ما يرافقه يقظة الشهوة وهيجان الحواس.

وقد استهزأ موليير في روايته "مدرسة النساء" بالرجل الذي يعشق في هذا الدور على أن التاريخ يقدم لنا شواهد كثيرة عن هذا الحب الذي يصح أن نسميه بالحب الرجعي، فقيصر الرومان بعد أن وصل إلى ما وراء

الغاية من المجد وإعجاب الناس وتمتع بما شاء من الانتصار والحب قصد إلى مصر وهو في السادسة والخمسين من العمر ليخضع العصاة فإذا بكليوباترا الملكة الشابة تسلبه اللب وتخضعه، ولولا إلحاح قواده لما رضى الرجوع إلى بلاده، فدخل روما بين الهتاف والتصفيق، وأراد أن تشترك كليوباترا في مشهد الاحتفاء بانتصاره فأرسل في طلبها وأسكنها أفخم قصوره وأقام لها تمثالاً من الذهب الإبريز في هيكل إلهة الحب.

وهنري الرابع في عامه السابع والخمسين علق بحب شارلوت مونمرانسي ولم يتم لها ستة عشر ربيعاً، وأضاع فيها رشده حتى أفضى به الأمر إلى التخفي في زي سائس مركبة ليتمكن من رؤيتها بعد أن هجرت القصر الملكي هرباً منه.

ومثل من ذكرنا الشاعر رونسار وشاتو بريان وواكنر وألفود ده فيني وهيكو وأوغست كونت وبوفون وغيرهم كثير.

وأغرب حب هو الذي اشتهر به برليوز الموسيقار فقد أحب فتاة في صباه، وبعد أن بلغ السبعين، ونقل فؤاده حيث شاء من الهوى، عاد إلى الحبيب الأول وأخذ يراسل الفتاة وقد صارت عجوزاً وجدّة، ويعرض عليها قلبه، فأبت أن تجيبه إلى طلبه، ونصحته بالكف عن ملاحقتها بعد أن بلغت من العمر عتياً.

ومن قرأ رسائله ورأى ما فيها من قوة التعبير وصدق العاطفة تولاه الدهش من هذا القلب البشري وما يمكن أن يحمل من غرائب الأسرار ويتقلب فيه من عجائب الأطوار.

هذا الحب في الكهولة يمتاز بأنه لا ينحصر في اللذة الجسدية بل يتناول شعوراً آخر هو نصف الحب بل أشرف ما فيه وأنقى وأبقى، أعني الصداقة. وإلى جانب الصداقة عواطف كثيرة مختلفة من خوف وغيرة وفضول وشدة تأثر وغير ذلك يديرها خيال خصب يصور الحياة بألوان زاهية الإشراق ساحرة الآفاق.

ولا حاجة إلى جمال فائق ليوحي هذا الحب فلا سلطان هنا للحظ الساحر والخد الأسيل والقد الرشيق، وحسب المرأة قليل من الجاذبية لتأخذ سبيلاً إلى القلب. ثم نجد من اختلاف الميول والأذواق ما لا يقل عن اختلاف الوجوه فمنهم من يتعشق المرأة لبساطة ما فيها ومنهم رغبة بالتضحية في سبيلها، ومنهم من يستهويه الجمود والبرودة ويلذ له أن يحب ليبعث الحياة في هذا الجماد إلى آخر ما هنالك. ولا يعني هذا تساهل الكهول في اختيار من يحبون فقد يكونون كالنهم المترف لا يرضيه شيء من الطعام مهما تفنن الطاهي في تحضيره، أو بالعكس كالذي يأكل ما يصيب ويفترسه افتراساً وربما اختنق به. والغالب أن الذين يختنقون هم القلة، وأكثر الكهول يحاولون الحصول على أفضل ما يمكن ولسان حالهم يقول:

لا يرعك المشيب يا ابنة عبـ ـد الله فالشيب جلة ووقار

إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت في خلالها الأنوار

والمعروف أن السواد الأعظم من هؤلاء إن لم نقل كلهم يفقدون قوة الإشراف على تصرفاتهم، وتضعف فيهم الإرادة إلى درجة ينسون معها الواجب نحو أزواجهم وأولادهم، ولا يردهم عن غيهم نصح أو تأنيب، ولا

يشفيهم من دائهم كاهن أو طبيب فهم كما قال الشاعر:

فلمـــا أبى إلا جماحـــاً لحبـــه ولم يسـل عـن ليلـى بمـال ولا أهـل

تسـلى بأخـرى غيرهـا، فـإذا الـتي تسـلى بهـا تغـرى بليلـى ولا تسـلى

أما الحب الروحاني أو الهوى العذري المجرد عن الشوق المادي والقوة الجسدية فلا وجود له بينهم. نعم إنهم يتأثرون أكثر من سواهم بمزايا الروح إلا أنهم لا يكتفون بها، وكثيراً ما يتظاهرون بالحب الأدبي استدراجاً للمرأة وتوصلا إلى الحب الآخر، وقد عرفت المرأة فيهم هذا فأصبحت لا تؤمن ولا تصدق، ولا غرو فإن الذي يستميل الرجل للوهلة الأولى ويحرك فيه عاطفة الهوى هو جمال الصورة قبل أن يعرف ما وراءها من الخلال والأخلاق فالحب الروحاني حديث خرافة. وحسبك أن الشعر الغزلي على سعته لا يعرف لغير الوصال ذكراً.

قال المتنبي:

زودينـا مـن حسـن وجهـك مادمتـ ـت فحسـن الوجـوه حـال تحـول

وصـلينا نصـلك في هـذه الدنيـ ـيا فـإن المقـام فيهـا قليـل

وقال أبو فراس:

معللــتي بالوصــل والمــوت دونــه إذا مـت ظمـآناً فـلا نـزل القطـر

وقال غيره:

صلي واغنمي أجراً فما وردة الربى تـدوم علـى حـال ولا وردة الخـد

إلى غير ذلك مما لا يحصى عده.

وبالعكس فقليل من يذكر العفة كقول الشاعر:

إني أحبــك حبــاً لا لفاحشــة   والحـب لـيس بـه في الله مـن باس

أو قول الآخر:

أحبـك يا ليلـى علـى غـير ريبـة   ومـا خـير حـب لا تعـف سـرائره

وإذا عدنا إلى الماضي وجدنا أن سعى الإنسان وراء ملذات الجسد لم يخل منه زمان ولا مكان. وقديماً حمل شعب الله الخاص مصباح التهتك، وكان الزواج المحرّم حلالا في الطبقات العليا. وشرع سولون شرعة للبغاء وضعها تحت حماية الآلهة. وكانت بلاد الإغريق سدوما ثانية ومدارس الفلاسفة مجتمعاً للفساد حتى قلق لذلك المشترعون ورجال القانون فجعلت الشرعة الرومانية عقابه الحرق بالنار، وكانوا في هولاندا للقرن الخامس عشر يضعون المتهم بالحب الشاذ في كيس ويغرقونه في البحر. وفي فرنسا قبل صدور قانون نابليون كانت النار أيضاً جزاء المتهتكين.

وكانوا يسمون المنازل الخاصة التي يباع الحب فيها ويشترى بالهياكل، وهي تسمية لا تنطبق على الواقع إلا من حيث أن هناك تضحية، تلك تضحية الحب.

وشيطان الظهيرة يزور الرجال أكثر من النساء، لأن الانحطاط أسرع إلى جسم المرأة فلا يدع لها مجالاً لاستقباله. على أنه لا ينكر أن اقتراب زمن اليأس يوقظ حاسة الجنس في المرأة ويسبب لها أعراضاً مرضية وأحلاماً مزعجة كانوا يعتقدون فيما مضى كما مر بنا أنها من فعل السحرة والأبالسة، وقد فسر "فرود" هذه الأعراض حسب طريقته المعروفة فهو

يعتقد أن الجاذب الجنسي هو المحور الذي تدور عليه كل حركاتنا وأعمالنا، وأن الحياة البشرية جمعاء معلقة بهياج تناسلي أو رغبة أطلق عليها اسم **Libido**. وهذه الرغبة التناسلية موجودة في كل أدوار العمر من الطفل الرضيع إلى الشيخ المنحني تحت أثقال السنين. وأن أكثر الأعراض العصبية والدماغية إن لم نقل كلها ناتجة عن تأثرات جنسية كامنة في العقل الباطن، مردودة أو مكبوتة أو ممنوعة من الظهور. وعلى هذا الاعتقاد أوجد طريقته في المعالجة بالتحليل النفساني **Pscychanalyse** وهي أن يستلقى المريض على ظهره ويأخذ بسرد حوادث ماضيه فيصغى الطبيب إليه وهو يحاول أن يقع منها على أثر قديم يمكن الرجوع إليه في تعليل الداء الجديد. وهذه الطريقة قديمة فهي لا تفرق عن الاعتراف عند النصارى بل ربما كانت دونها في النتيجة لأن فكرة الغريزة الجنسية والاعتقاد بها مقدماً تؤثر في حكم الطبيب فتضلله وتضلل المريض معاً.

على أنه لا حاجة لسبر العقل الباطن لتعليل التغيرات التي تحدث في زمن اليأس. فالسبب فسيولوجي أكثر مما هو سيكولوجي لأن الهرم يصيب الغدد النسائية فيقل إفرازها اللازم للتغذية العمومية وللوظائف العصبية. وقلة الإفراز تحدث اختلالا تكون هذه التغيرات من أثماره إلى أن يتعود الجسم ويعتاض عن هذه الغدد بغيرها من الغدد الصماء التي تعطي الجسم ما قصر عنه المبيض وتعيد إليه النظام.

وللحب حول الخمسين فائدته الصحية إذا انتهى بالزواج فقد دلت الإحصاءات أن الجرائم في هذه السن أقل عند المتزوجين منها عند العزّاب والأرامل. وكذلك الوفيات.

لا أقصد بذلك إلى وجوب الزواج على كل من بلغ هذه السن فالذي ينفق شبابه في الملاهي وينهك عقله وبدنه ثم يختار فتاة في مقتبل العمر لترافقه في آخر الطريق مجرم في نظري وخير له أن يردد مع الشاعر:

سلام على الدنيا ولذة عيشها   سلام غدو أو رواح إلى الرمس

وإزاء هذه الفائدة الصحية المحصورة في دائرتها الضيقة فالحب في الكهولة له أضرار كثيرة لأن الإفراط في هذا الدور من العمر خطر عظيم. وعندي أن الأكل بدون جوع أو الشرب بلا ظمأ أخف ضرراً من التهيج الذي لا داعي له. فالجسم كالمصباح الكهربائي الذي تحمله في جيبك، إذا لم تقتصد في استعماله انطفأ قبل حينه ولم يخدمك نوره إلى آخر الطريق.

وبعض الناس أكثر تعرضاً لهذا الخطر، خطر الإفراط، من البعض الآخر فالذي يتمتع بمركز سام سياسي أو مالي أو اجتماعي تقوده سهولة الحصول على ما يريد أن لا يكون صلب الإرادة في المحافظة على الفضيلة والتمنع عن الشهوات فهو أسرع من غيره للخروج عن دائرة الاعتدال في الحب وقد قالت الحكماء خير الأمور الوسط. الوسط في الثروة وفي الصحة والمناخ والمزاج وفي الذكاء وفي الغذاء، فمن ملك هذا فقد اهتدى السبب لإطالة الحياة على الأرض.

هذا ما عن لي ذكره عن شيطان الظهيرة فهو في الغالب يحمل إلى الجسم عبء الآلام فوق عبء الأيام. وقد يكون من الملائكة الساقطين فيذكر السماء حيناً بعد حين.

الداء وحامل الداء

قيل إن طبيباً حديث العهد بصناعته دعى يوماً لعيادة نجار فوجده يشكو ألماً في الرأس وضيقاً في الصدر، وقد بلغت حرارته الأربعين وجاوزت دقات قلبه المئة والخمسين. فعالجه بالتي هي أحسن بعد أن أنذر ذويه بالخطر وعاد وهو يشكو سوء الطالع الذي ساقه إلى حادثة قد تؤثر عواقبها في شهرته الفنية ومستقبله الفني.

وما كان أحلاها مفاجأة عندما التقى بمريضه في الطريق، بعد يومين من عيادته له، ممتلئاً صحة ونشاطاً. فدفعه الفضول إلى الاستفهام منه عما فعل في هذه الفترة وما استعمل من وسائل العلاج، فأخبره أنه نهض في صباح اليوم الثاني وبه جوع شديد وكان طبيخ البيت أقراصاً من الكبة، ذلك الطعام الشرقي المعروف، فأكل منها ثلاثة أحس بعدها بالقوة ترجع إليه والألم يزول عنه. فهنأه الطبيب وسار في طريقه معجباً بخوارق الطبيعة في شفاء الأمراض مما لم يتلقنه على مقاعد الدرس.

وبعد أيام دعى هذا الطبيب لعيادة جاره الحداد فوجد عنده أعراضاً تشبه كل الشبه أعراض النجار. فتذكر أقراص الكبة، وحدثته النفس أن يشير عليه بها. ولم يصعب كثيراً إقناع ذويه وتبديد مخاوفهم ولا سيما لأن المريض كان يحب هذا اللون من الطعام ويشتهيه. ثم ذهب مطمئناً بعد أن وعدهم بالرجوع في الغد، زيارة حبية لا يطلب عنها أجراً ولا شكورا.

وفي صباح اليوم التالي أسرع الطبيب إلى منزل مريضه وملء صدره أمل، فما جاوز غير بعيد حتى سمع الندب والعويل، ورأى من أخبره أن المريض قضى نحبه على أثر أكله ثلاثة أقراص من الكبة. فعاد أدراجه وتناول من محفظته دفتراً صغيراً أعده لتدوين ملاحظاته الطبية وكتب فيه: ثلاثة أقراص من الكبة تشفي النجار وتقتل الحداد....

أورد هذا على سبيل النكتة ولكن فيه مغزى كبيراً فإن اختلاف الناس في استعدادهم للأمراض ومقاومتهم لها أمر لا ريب فيه، وكم من الذين يحتملون الداء على شدته وطول مدته ثم يتغلبون عليه في حين أن سواهم يرزحون تحت أثقاله في وقت قصير، ولا يلبث أن يفتك بهم.

بل رب جسم قوي على أشد الأمراض فتكاً فخرج من المعركة ظافراً وجسم أودى به عارض بسيط كالزكام أو حبة في الجلد لا تدعو إلى الاهتمام. وهذا يدلك على ما في بعض العادات والتقاليد من الخطأ والضلال، فترى من الناس من يتداولون الدواء الواحد، يستعملونه بلا تمييز لهذا وذاك، معتقدين أنه بنفعه فلانا لا بد أن ينفع سواه.

وكم نرى من المستحضرات الطبية كقطرة العين مثلاً أو مرهم للحروق أو مسكن للوجع أو غير ذلك، فتدور وتنتقل من يد إلى يد وتستعمل على السواء للكبير والصغير لا فرق في السن والمزاج، وقد يكون في تركيبها من المواد، أو في مقدار الجرعة، ما لا يوافق كل الناس.

بل كم من الحوادث التي يكون فيها الداء الواحد خفيف الوطأة ويذهب بالمريض على الرغم من المداراة وفائق العناية، وشديد الوطأة إلى

درجة تبعد كل أمل بالشفاء، وينجو المريض بأعجوبة.

وما الأعجوبة إلا استعداد الجسم ومقدرته الطبيعية على الدفاع.

أذكر حادثة قديمة من هذا القبيل: دعاني يوماً ناطور الماء في عاليه(٦)، لعيادة ابنه، وكان يقيم في طرف القرية، بعيداً عن الناس، في خيمة لا يدخلها النور والهواء إلا من بابها الضيق المنخفض، فاضطررت إلى إشعال شمعة لأتمكن من رؤية المريض، فإذا به ملقى على فراش في الأرض غائب الوعي، تشويه الحمى، وكل ما فيه من الأعراض يدل على تيفوئيد شديدة، ولم يكن لدي من الوسائل في تلك البقعة النائية ما يساعدني على نقل المريض أو معالجته بما تقتضي حاله، فاكتفيت بإعطائه مقوياً للقلب وأوصيت أهله أن يمنعوا عنه كل طعام ويكتفوا بالسوائل المبردة.

وقضت الأحوال أن أغيب عن القرية أياماً فلما عدت قصدت إلى عين الماء لأستعلم عن حالة المريض من أبيه فلما رآني هش وبش وأقبل على يدي يقبلها. لقد شفي ابنه تماماً ولكن بعد أن أكل صحناً من العدس المطبوخ "مجدرة"؛ والظاهر أنهم لم يحسبوا هذه الأكلة بين الأشياء الممنوعة فكان الفضل لي إذ كنت الطبيب المداوي.

لقد ظن الناطور أن "المجدرة" أبعد من أن تضر بصحة ولده ولربما ساعدت على شفائه، ومن أين له أن يعلم أن قوة الدفاع في جسم الولد هي التي تغلبت على الداء وعلى طعام "المجدرة"، فوق ذلك.

---

(٦) قرية من قرى لبنان.

هذه القوة الدفاعية لا نفهم كيف نعللها. فلكل فرد ذاتيته الخاصة، ذاتية متصلة بالصميم من خلايا أنسجته وسوائله وبها يمتاز عن غيره.

نعم هناك رئة تتنفس وقلب يخفق ومعدة تهضم على منهاج واحد في جميع الناس، كما أنك إذا فحصت بالتشريح والمجهر وجدت تركيب العين والجلد والأمعاء والجهاز العصبي واحداً، ولكن ما أعظم الفرق عند التغلغل في أعماق هذا التركيب، وكم من الأسرار في نظام الدورة والتنفس، وحدة النظر، وسرعة الأفعال المنعكسة ومفرزات الغدد؟

ولنا في حوادث الطب والجراحة كل يوم شواهد على الفروق العميقة في ذاتية الإنسان. فإن عملية ڤورنوف لتجديد الشباب لا تنجح (على أن نجاحها مؤقت) إلا إذا اتخذت الغدة التي يلقح بها الإنسان من الحيوان الأقرب نسباً إليه أو شبهاً به كالغوريلا.

كذلك نقل الدم من صحيح الجسم إلى مريضه. فقد كان شديد الخطر قبل أن يتوصل لانديستنر إلى قسمة الدم إلى أربعة أقسام منها ما يتشابه بالذاتية ومنها ما يختلف.

وكما أن للإنسان ذاتية خلوية فله أيضاً ذاتية فكرية تهيئها شروط الوراثة والتربية والبيئة، والناس جميعاً على اختلاف في عقولهم وأميالهم وتصوراتهم كما هم على اختلاف في سوائلهم وأنسجتهم، فترى الواحد عبداً للعاطفة والثاني سيدا لها. هذا سريع الانفعال يندفع بسهولة إلى العمل دون نظر في العاقبة، وذاك بليد يملك قياد نفسه. ورحم الله اليازجي القائل:

إنما نحـــن في اخـــتلاف عقـــول   مثلمـــا نحـــن في اخـــتلاف وجـــوه

وجملة القول أن هذه الذاتية التي يستقل بها كل فرد منا هي التي تخلع على الجسم والعقل لباساً خاصاً وتجعل استعدادنا لقبول الأمراض مرهوناً بقوة الدفاع الطبيعي، فتعطي لكل صحة رأس مال محدود يكفيها إلى أجل محدود.

إذا عرفت هذا أدركت مدى الفائدة من العناية بهذا الرأسمال فلا تنفقه جزافاً، وتبينت أن الأدوية والعقاقير ليست سوى وسائل لنجدة الجسم حال التعب، وأن الإفراط فيها يضر كالتفريط، والأفضل أن يطبق استعمالها بإشارة الطبيب تبعاً للبيئة والسلالة والمزاج والسن فلا ينظر إلى الداء بل إلى حامل الداء.

الأحداث النفسانية

في ذلك العهد، قبل أن تسلمني الأقدار إلى الوظيفة، زارني يوماً مريض يشكو كآبة في النفس لا يعرف لها سبباً. وكانت هذه الكآبة ملازمة له في قيامه وقعوده فتزعجه وتزعج من حواليه، حتى ملكت عليه كل قدرة على العمل أو ميلاً إليه. وكان أقصى مناه التخلص من هذه السوداء (الملنخوليا) ليسترد قواه العقلية والبدنية ويعود إليه نشاطه المفقود وذكاؤه المعهود. فأفهمته أن ما يحسبه نتيجة للحزن العالق به هو سبب له، فما الحزن إلا انعكاس ذهني لخور القوى وتعب الأعصاب، وعليه أن يعالج هذه قبل معالجة ذاك ليشفى. وهكذا كان.

وكم من الناس من هم على شاكلة هذا المريض، فإن المتعارف أن الأحداث النفسانية (كالحزن والغضب وما شاكل) تؤثر في الجسم فتولد الداء أو تشفيه، ولكن أن تكون مسببة عن المرض لا سبباً له فهذا ما يجهله الكثيرون.

فإذا كان تأثير الأحداث النفسانية في الصحة معروفاً حتى جرى على ألسنة الشعراء كما قال المتنبي في رثاء جدته:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي ومت بها غماً

أو في سقوط خيمة سيف الدولة:

فلا تنكرن لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتل

أو كما قال في موضع آخر:

والهـم يخـترم الجسـيم نحافـة ويشـيب ناصـية الصـبي ويهـرم

أو كما قال غيره:

رمـى الحـدثان نسـوة آل سـعد بمقـدار سمـدن لـه سمـودا

فـرد شـعورهن السـود بيضـاً ورد وجـوهن البـيض سـودا

فإن العكس أي تأثير الصحة في الأحداث النفسانية أمر حديث العهد بالدرس لم يتعد تاريخه الربع الأخير من المائة الماضية. وقد أتيح فيه للعلماء أن يعرفوا لماذا يفرح الإنسان أو يحزن وكيف يخاف أو يغضب ومن أين يأتيه النشاط إلى العمل أو الكسل عنه والنفور منه، وما هو سبب الكبرياء عند الواحد والتواضع عند الآخر، إلى آخر ما هنالك.

لا يخفى أن الإنسان مجتمع للنقائض، ففيه الشر والصلاح والكرم واللؤم والعفة والظلم، فإذا رأيت فاضلا بكل معنى الكلمة فلا تحسب من المستحيل أن يأتي شراً، أو شريراً فلا تظنه غير أهل لأن يعرف الصلاح. هكذا تمر بالكريم ساعات يجد نفسه بخيلاً، وبالشجاع أوقات يرى نفسه جباناً، وبالعفيف أحيان تتسلط عليه الشهوات، وبالحليم هنات يستعبده الغضب. كل ذلك بتأثير العصب العاطف (السمباتوي) الذي يدير وظائف الجسم والغدد، فإن المعدة والكبد والقلب وغشاء الكلية والغدة الدرقية وغيرها هي التي تسبب تارة الحزن والخمول وطوراً القلق والذهول وحيناً الحدة والغضب فترفع الإنسان إلى ما فوق مرتبته الطبيعية من الهيجان أو تنزله إلى ما تحتها من الخمول. فالريب والضعة والكسل

والخوف والحزن والشفقة هي أعراض لتعب الدماغ في درجاته المختلفة، والكبرياء والإدعاء والغضب وحب الذات والشجاعة والبطولة والقسوة أعراض أيضاً لتهيج الدماغ في شتى أنواعه.

لذلك كانت معالجة هذه الأحوال النفسانية أو ما يحتاج منها إلى العلاج، قائمة على مداواة الجسم وتقويتة وإرجاع النظام إلى وظائف آلاته كما فعلت في المريض الذي أشرت إليه في صدر هذه الكلمة. لأن الحزن هو إحدى درجات الانحطاط الحيوي كما أن الفرح هو أول درجات التهيج العصبي، والسبب المباشر لكليهما آت من الداخل لا من الخارج. ألا ترى كيف أن إشراق الشمس في يوم شتاء بارد وصفاء الجو يبعث في النفس انتعاشاً ويجعل للجسم شبه أجنحة، وكيف أن كأساً من الخمر الجيدة تفرح قلب الإنسان كما جاء في الإنجيل؟ ذلك لأن شعاع الشمس وكأس الخمر قد أهاجا المراكز العصبية فرفعت الضغط الدموي كما يفعل الدواء وسهلت لأعضاء الجسم إتمام وظائفها.

فالسر إذاً هو في البحث عن سبب الخلل أو الاضطراب الحاصل في هذه الوظائف من هضم وتنفس ودورة دموية وما شاكل، حتى إذا اهتدينا إليه عالجناه بما تقدمه لنا الطبيعة والعلم من الوسائل.

وإذا كان في نور الشمس والخمر فائدة للصحة فهذه الفائدة مقيدة بشروط لأن الإفراط كالتفريط.

ولكل دواء جرعة نافعة وجرعة قاتلة، فكثرة التعرض لأشعة الشمس قد يؤذي كما أن الإكثار من الخمر سبيل إلى المرض.

غير أن كثيراً من الناس يجهلون ذلك فتراهم يدمنون الخمر طمعاً بالوصول إلى قمة الفرح ليفوزوا بالسلوان والنسيان ويتبعدوا عن وادي الدموع ما أمكن الابتعاد، ومنهم من يلجأ إلى الأفيون أو غيره من المخدرات وكلها فراديس مصطنعة كما قال بودلير ظاهرها هناء وباطنها شقاء.

لقد تعودنا أن نذم الدهر وننسب إليه الخيانة والغدر لدى كل ملمة تنزل بنا، ونباركه في ساعات الرضا والملذات، وما الدهر إلا نحن وما الألم واللذة إلا منا وفينا حسبما تتجاوب اهتزازات مراكزنا العصبية للأثر الخارجي. وحالات الضعف أو القوة هي التي ترينا هذا الحادث مفرحاً أو محزناً فتبعث فيما حب الحياة أو كراهتها.

والرجوع إلى المنابع الطبيعية للقوة البشرية أقوم سبيل لطرد الكآبة وجلب الفرح فالأنغام الشجية تطرب الآذان والمناظر الجميلة تبهج الأنظار، والرياضة البدنية تقوي العضل والأعصاب. فإذا أضفنا إلى هذه الوسائل هواء نقياً لرئاتنا وغذاء معتدلاً مناسباً لأبداننا فلا داء ولا دواء.

وحيـــاة الإنســـان ســـفر عجيـــب ســـــطرته العـــــادات والأهـــــواء

فـــإذا شـــئت فالســـطور نحيـــب وإذا شـــئت فالســـطور غنـــاء

التعب

في قواميس اللغة: التعب نقيض الراحة والراحة نقيض التعب، ولا تجد لهما غير هذا التعريف، كما أنه لا يجرى ذكر التعب على قلم أو لسان إلا ذكرت الراحة معه، قال أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها   تنال إلا على جسر من التعب

وقال غيره:

وتتعبني الحقيقة في نهاري   وتمنع راحتي أحلام ليلى

وقال شوقي:

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا

وقالت الشاعرة الإنجليزية مسز بروتن ما معناه:

ولا تعجبن لبكاء الصغير   وفي الشيخ إن يبك كل العجب

فقصر الحياة له راحة   وفي طولها للصغير التعب

وفي الإنجيل: تعالوا إليّ أيها المتعبون وأنا أريحكم.

على أن الطبيب لا يكتفي بهذا القدر، وهو يعرف أن التعب حالة من حالات الجسم يخف فيها نشاطه وتخور قواه بما يصيبه من إجهاد العصب أو يتراكم فيه من السموم الآتية من الاحتراقات الباطنية ومن الخارج

بالغذاء وسواه.

وإذا صدق أبو العلاء المعري بقوله:

تعــب كلهــا الحيــاة فمــا أعــ ــجب إلا مــن راغــب في ازدياد

فمرور ألف سنة على هذا القول لم يبدل من حقيقته، بل أصبح التعب عدو المدنية الذي يهدد قواها ويعرقل سيرها إلى الأمام لأنه كلما زاد تفنن الإنسان في توفير لذاته – أو بعبارة أخرى الاهتزازات العصبية التي تروق لدماغه – زادت متاعبه. والحياة العصرية بما فيها من لهو وطرب وشرب وسهر وأنوار وألحان وغير ذلك هي منبع فوار لهذه الاهتزازات التي يصيب منها كل حاسة من حواسنا عدد هائل في كل يوم.

حسب الإنسان أن يمر من أمام بصره شيء فاقع اللون أو يرن في أذنيه صوت ما ليتهيج جهازه العصبي وتزداد قوته حيناً، ويمكنك أن تتحقق ذلك بتجربة بسيطة وهي أن تقبض بيدك على آلة مقياس القوة (ديناممتر) وتغمض عينيك وتشد على الآلة فترقم لك مثلاً ٥٥ كيلو، ثم تفتح عينيك على شيء أحمر اللون وتعيد الضغط على الآلة فترى الرقم ارتفع إلى ٦٥ كيلو أي أن قوتك العضلية زادت عشرة كيلوات في لمحة عين. إلا أن هذه الزيادة عارضة ولا تلبث أن تزول تاركة بعدها تعباً أطول مدة بحيث لا تستطيع الشد على الآلة إلى أكثر من ٤٠ كيلو.

وعلى الرغم من كل ما اخترعه الإنسان فهو لم يتوصل إلى التحرر من ربقة التعب. والعقل في ذلك كالجسم لأن حاجتنا إلى توسيع نطاق المعرفة وفقاً لمطالب الحضارة على ازدياد مستمر؛ ولو تأملنا فيما نراه كل يوم من

مشاهد وصور ونسمعه من حديث وألحان لهالنا مقدار القوة التي نبددها في هذه الناحية الفنية وحدها. فإذا أضفنا إليها ما يحتاج إليه كل واحد في المهنة التي يحترفها من الاجتهاد والجهد وإعمال الفكرة أدركنا خطر هذا العدو ونتائجه في إضعاف البنية وفتح الطريق للأمراض العصبية التي تؤثر في النسل، وتبينا الحاجة القصوى إلى تدارك الأمر ومعالجته بالوسائل التي بين أيدينا.

وهنا أرى تقصير كتب اللغة في تعريف التعب لأنه لو كان نقيض الراحة فحسب لكفت هذه بإزالته. لا أنكر أن الراحة تفيد في علاج التعب إذا بلغ حد الإجهاد Surmenage، ولكن الإفراط فيها كالتفريط، ومن الواجب استعمالها بمقدار، كما تستعمل العقاقير الطبية وإلا عادت على المستسلم إليها بالضرر لما تجلبه من الكسل والخمول فتذهب بما عند المرء من استعداد للعمل وصبر عليه.

وأما العلاج الصحيح الذي يفيد في التعب العادي ويمنعه فهو العمل المنظم، سواء فيه حامل القلم وحامل المعول.

والمتداول بين الناس أن الأعمال العقلية كالتأليف وغيره تنهك القوى؛ والحقيقة على خلاف ذلك فإن التعب الحقيقي نادر عند المنتجين ولا يتألم منه في أغلب الأحايين إلا الذين يكتفون بالتأملات ولا ينتجون، أو ينتجون في أوقات متقطعة يسمونها ساعات الوحي، فتفور قريحتهم فوراناً ثم تهدأ ويضطرون بعدها إلى راحة طويلة.

ولو رجعنا إلى حياة كبار الكتاب الذين أنتجوا كثيراً مثل بلزاك ودوماس وهيكو وسواهم لوجدنا أن العمل لم يكن ليتعبهم بل بالعكس، والسر

في ذلك تنظيم معيشتهم وتعويد أدمغتهم على العمل في ساعات محدودة. ذلك لأن الدماغ كالمعدة، فكما تعود المعدة على استقبال الطعام في حين معلوم فتفرز عصارتها كلما دقت ساعته وتتألم إذا أخلفت ميعادك معها، كذلك الدماغ فإذا عودته العمل في ساعات معهودة لبّاك بسهولة، وساق إليك المعاني والجمل دون أن تحتاج إلى وقت طويل لجمع أفكارك وجر قلمك.

والأعمال البدنية كالعقلية لأنها كلها من وظائف المادة السنجابية في الدماغ، ذلك الآمر الناهي في جميع حركاتنا من نطق وكتابة ومشي وما شاكل. فإذا نظمت عملك ومرنت جسمك عليه استغنيت عن إشراف الدماغ وصارت الحركة فيك كالأفعال المنعكسة التي لا تتعب لأنها تجري مستقلة عن الإرادة.

وعلى هذا الوجه يستطيع راكب الدراجة المتمرن أن يقطع مئات الأميال دون أن تتعب رجلاه.

كثير من الناس لا يعرفون كيف يكون العمل ومتى يجب الانقطاع عنه، فحياتهم قائمة على غير نظام كبعض الأولاد الذين يأكلون كل حين وإذا جلسوا إلى المائدة أضاعوا قابليتهم، وتراهم يهربون من النوم مساء ليلعبوا، فإذا جاء وقت الدرس حوّم النوم على أجفانهم.

وخلاصة القول أن ترتيب أحوال المعيشة والسير على منهاج مرسوم للعمل فيها في مختلف مقاصدها ونواحيها أفضل الوسائل لتوفير قوى الحياة وإقصاء التعب عنها، والله أعلم.

دواء للكسل

عجباً! وللكسل أيضاً دواء؟

وكيف ذلك، والناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم مجبولون على الكسل، من مقاعد المدرسة إلى كراسي الحكم؟

وأين تبحث عن الدواء، وأنت تكره العقاقير وتجاربها، وتتكل على ما في طبيعة الإنسان من عامل الشفاء، والميل إلى البقاء؟

نعم للكسل دواء، لأنه مرض كسائر الأمراض، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وللبيان أقسم حديثي إلى قسمين: الكسل في المدرسة وبعد المدرسة.

١- في المدرسة:

من الأوهام الراسخة في الأذهان، الشائعة في كل مكان، أن التلميذ الكسول مذنب مسئول، لأنه يتجافى الدرس عن كره للدرس، وعليه أن يتحمل تبعة هذا الذنب، فيعاقبونه من اللوم البسيط إلى الضرب، إلى حرمانه من أشياء كثيرة يتمتع بها رفقاؤه، إلى الطرد من المدرسة.

وكثيراً ما يتفانى الطالب المسكين في سبيل التخلص من اللائمة والقصاص، مفرغاً الطوق في التحصيل ليمشي إلى جانب رفقائه، فلا يفيده الإجهاد غير الوقوع في حالة من الخمول أشد من الأولى.

ذلك لأن الكسل، لو تحققت، دليل دفاع طبيعي، يحامي به الجسم عن قوته الباقية فلا يذهب بها التعب، ويدفع عنه أسباب التهيج الذي يؤذيه إذا أطاعه. فهو كالحمى التي ترافق الجسم في الأمراض الوبيلة، إن هي إلا ذريعة للدفاع ضد الميكروب وسمومه.

والكسول في أكثر الأحيان هو كذلك لا لأنه لا يريد العمل، بل لأنه لا يقدر عليه. فهو مريض أو على حدود المرض.

فأما الكسالى الذين هم على حدود المرض فإنك تجدهم أصحاء الجسم لا عاهة فيهم، وجل ما يقال عنهم أنهم نهمون يكثرون من الأكل، وأصناف الأكل، ولا تخلو أخلاقهم من الشراسة أو الحدة وسرعة التأثر.

والبطنة كما قال الإمام علي (ض) تذهب الفطنة. لأن الإفراط في التغذية يفضي إلى تكاثر الفضلات وزيادة الإفراز المهيج للعصب.

وتأتي الرياضة البدنية المفروضة على التلميذ فتضيف إلى سموم الهضم سموماً أخرى من إفراز العضلات بكثرة العمل.

فإذا حان وقت الدرس، كان هؤلاء المساكين في الدرجة القصوى من التعب: عيونهم ذابلة، وأعصابهم مرتخية، وقد ذهب عنهم ذلك الهياج الوقتي، هياج الركض وغيره، وعقبه الخمول والجمود. فالهضم متعب، والعضل متعب، والعصب متعب، ولا سبيل للعقل أن يحفظ قوته وللذهن أن يستعيد إشراقه.

وأما الكسالى المرضى حقيقة فهم من الذين أصيبوا في صغرهم بمرض

ما (بأمراض الأطفال كالسعال الديكي والحصبة والنزلة الرئوية، والتهاب اللوزتين) أو ورثوا عن آبائهم ما صح فيه قول الكتاب: "الآباء أكلوا الحصرم والأولاد ضرست أسنانهم"، فترى آثار ذلك في شحوب وجوههم، وارتخاء عضلهم، واضطراب حواسهم وفيما يشكون من الصداع والأرق وإمساك البطن، وذهاب قابلية الأكل، وكثرة الأحلام المزعجة، وفي تقلب أخلاقهم وميلهم إلى الكذب والغضب والعدوان والتأثر السريع.

هذه حالات الكسل في التلامذة علاجها سهل كما ترى وذلك بمعالجة أسبابها مما لا يسعنا الإسهاب فيه في هذا المقام.

٢- بعد المدرسة:

هناك التاجر والصانع والكاتب والحاسب وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن الحرة. ينشأ الكسل فيهم عن أسباب مختلفة تحملهم على تغيير معيشتهم والخروج على نظام العمل فيها بما يعترضهم من وسائل الإغراء، ويستهويهم من دواعي اللهو والاستمتاع والتصابي والمقامرة وما شاكل، ويتعودون عليه من تعاطي الخمر أو غيرها من المخدرات والسموم.

وربّ فتى كان من المجتهدين والنابغين فإذا خرج إلى حياة العالم تبدلت أحواله بسوء العشرة وحب التقليد فمال إلى الكسل وضاعت منه تلك المزايا التي كان يعلق عليها ذووه آمالا كباراً.

أما كسل الأديب فكثيراً ما يكون عن نفور وملل على حد قول الشاعر:

وزهــدني بالنــاس معــرفتي بهــم وعلمـــي بأن العـــالمين هبـــاء

فهو يكتب للناس، ثم يعود فلا يكتب حتى لنفسه.

والناس إذا لم يلبهم الكاتب كل يوم بمقال، والشاعر بقصيدة نسبوا ذلك إلى الكسل، كأن المقال النفيس أو الشعر الجيد طبخة من الفول، يكفيها وقت محدود، وقليل من الوقود.

لا أحاول تبرئة الكتاب والشعراء، فقد عرفوا بالكسل ماضياً وحاضراً. منهم من يعمل ساعات معينة في النهار ولكنه عمل يومي لا ينقطع، ومنهم من تمضي الأيام ولا يحرك قلماً حتى يحركه الإلهام، أو تدعوه الضرورة إليه، ومنهم من يعمل ويستريح بعد العمل طويلاً لأن حمى الإبداع كحمى الجسم تنهك وتضني.

وعلاج هؤلاء مادي وأدبي:

أما المادي ففي ترتيب المعيشة والعفة في الأكل لأن بطء الإرادة إن هو إلا بطء التغذية، أي التحليل والتمثيل في أعماق الجسم.

وأما الأدبي فبالتعود على العمل. قد تجد تناقضاً في هذا التعبير لأن الكسول يكره العمل فكيف تداويه به. وهذا ما يحتاج إلى التفسير.

في التاريخ رجال تغلبوا على كسلهم وأتوا بالعجائب، فكانوا على الرغم من عملهم القليل من المكثرين إنتاجاً.

هذا روسو يقول في "اعترافاته" إنه لم يكن يستطيع الكتابة إلا مضطجعاً وإذا جلس خانته الذاكرة وعقه البيان.

وهذا دارون كان العمل يضنيه، فيمنع عنه الكلام وزيارة الأصحاب، ولم يكن عمله يتجاوز ثلاث ساعات في اليوم.

وهذا بلزاك، على ضخامة ما كتب، كان كثير الميل إلى الكسل ولا يعمل إلا مكرها، لوفاءدين أو غير ذلك.

وكان غوته يشتغل في الصباح ويقضي سائر أوقاته في الحياة العالمية.

هؤلاء هم من النوابغ كأبطال التاريخ الذين اهتدوا بدون معلم إلى اختراع حروف الهجاء والتصوير والهندسة. فإذا كنت أيها القارئ بطلا فقد سهل عليك التغلب على كسلك لتنتج إنتاجهم وإذا كنت بشراً مثلي فاسمع ما أقصه عليك:

كنا ثلاثة، عند نهاية دراستنا الطبية، نجتمع للدرس معاً استعداداً للفحص الأخير. فلم تكن مدة الدرس يومياً أقل من سبع أو ثماني ساعات دون أن نشعر بتعب أو ملل. وعندما كانت الموانع تحول دون اجتماعنا، كان كل منا ينصرف إلى الدرس وحده فلا يستطيع، ويقضي نهاره في التأملات والأحلام، تارة يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً، وطوراً يطل من النافذة على الأفق البعيد، وحيناً يلهو بالتدخين أو الغناء. ولم تنجح حيلتنا في التغلب على الكسل الذي يرافق مثل هذه الدروس إلا باجتماعنا معاً نتعاون وينشط كل منا أخاه.

وأعرف اليوم ثلاثة من الأدباء النابغين، تعودوا المقامرة والرهان في سباق الخيل، وكانوا يريدون التخلص من هذه العادة ولا يقدرون، وكلما تعاهدوا أن لا يعودوا إليها عادوا بعدها يشكون، فلما اتفقوا على قضاء

أوقات الفراغ معاً، أمكنهم بالإرادة المتجمعة أن يخلقوا لهم من اللهو ما أنساهم الرهان والقمار.

أريد بهذا أن أقول إن الأديب الكسلان في حاجة إلى رفيق يأنس به ويستمد منه التشجيع، لا ببلاغة الكلام والوعظ، بل بالاشتراك معه في العمل "وضعيفان يغلبان قوياً".

وهذه المشاركة تحمله على النظام في أمور حياته، والأديب الذي يعيش ليكتب لا يستمد الإلهام كما قال "بورجيه" إلا بتنظيم عمله.

وعلى هذا الوجه لا يبقى من سبيل إلى العجب إذا قلنا إن الكسل عادة يمكن التغلب عليها بل مرض في الإمكان شفاؤه.

إلا الذين أبوا أن يغيروا من عاداتهم شيئاً فصح فيهم قول الشاعر:

لا ترجــع الأنفــس عــن غيهــا ... مــا لم يكــن منهــا لهــا زاجــر

الأرق

في الأساطير أن جنية غضبت يوماً على أميرة، لأنها لم تدعها إلى حفلة عماد فأوقعت عليها سباتاً عميقاً دام مائة عام.

ولو احتيج اليوم إلى مثل هذا العقاب لما كان نوماً بل أرقاً، لما في الأرق من عذاب. ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه مشاغل الفكر، وعم الخوف من الغد، وأصبح شبح الحرب ماثلاً في كل مكان حتى صار النوم أكبر نعمة يتمناها الإنسان.

كثيراً ما يسمع الطبيب مريضاً يقول له: أنا لا أنام ولا يغمض لي جفن، لا أستطيع النوم. تلك شكوى قلما ينظر إليها الطبيب العارف بعين الجد لأن الذين يشكون الأرق ينامون بوجه عام أكثر مما تظنون. وليست شكواهم ضرباً من الهستريا فهم صادقون في نظر أنفسهم ولكن الواقع أن نومهم مضطرب تتخلله يقظات متعددة فيخيل لهم أنهم لم يناموا قط.

إن ما لا ريب فيه أن النوم العميق لا يكون في الجسم السليم. وإذا ما سمعت أحدهم يقول أنام ملء جفوني نوماً متصلاً وإذا نهضت في الصباح أجدني على جنبي الذي نمت عليه فلا تصدق هذا القول إذا كان القائل صحيح الجسم لا علة فيه.

وقد أخذ شريط سينمائي لمائة وخمسين شخصاً في حالة النوم بإشراف الطبيب جونسون من منرسبورغ فلم يكن النوم العميق إلا عند واحد،

وكان هذا مصاباً بالجنون. أما الآخرون فكانوا لا ينفكون عن الحركة والتقلب في مضاجعهم من ٢٠ إلى ٦٠ مرة في الليل. ولم يتجاوز الخمسين منهم عدد الذين كانوا يبقون بلا حراك مدة لا تزيد عن ٥ دقائق.

ربما كان السبب في هذه الحركة أن ثقل الجسم على العضلات والمفاصل. والعروق يسبب نوعاً من الانزعاج فيضطر النائم إلى التقلب من جنب إلى جنب. وبما أن من الناس من نومهم أخف من نوم سواهم فهذا التقلب يرافقه تنبه ويقظة فيخالون أنهم لم يناموا قط.

وحكى أحدهم أنه اضطر يوماً أن يشاطر أخاه فراشه الضيق وعند الصباح شكا الأخوان أنهما لم يذوقا طعم الرقاد، ولكن كان ثمة من الشهود ما كذب دعواهما وهو أن فراشهما كان مغطى بحطام الجصّ (الجبسين) المتساقط من سقف البيت دون أن يشعرا به.

يقول الشاعر: النوم موت قصير. هذا غير صحيح فالنوم ليس موتاً لأنه لا يذهب بالوعي كله بل لا يزال قسم من هذا الوعي متنبهاً فينا. ويمكن القول إن العقل الباطن يبقى حارساً مدة النوم، وهو الذي يوقظنا عندما نريد وفي الساعة التي نختارها، وفي وسعنا توجيه هذا العقل الباطن كما شاء فلا ندعه يهتم إلا ببعض الأصوات كأننا نلقنه ذلك تلقيناً. ألا ترى كيف يستيقظ صاحب الطاحون بالسكوت، عندما يقف طاحونة عن الدوران؟ وكذلك تستيقظ الأم لأدنى أنين يأتيها من الغرفة المجاورة حيث ينام طفلها؟ وكم من الذين يأوون إلى أسرتهم وفي نيتهم النهوض في ساعة معينة فيحفظ العقل الباطن ذلك ويوقظهم في الساعة المعينة.

أما المصاب بالأرق فهو يوجه عقله في غير الطريق السويّ كأنما هو يطلب منه خصيصاً أن يوقظه كلما تقلب على سريره، ومصيبته لو تحققت ليست في عدم النوم بل في الخوف من أن لا ينام.

والأرق – ما خلا الحوادث النادرة التي يكون فيها ناجماً عن آفة عضوية أو دماغية – لا يأتي إلا من الإجهاد والتعب العقلي فإن من الهموم والمشاغل ما لا يستطيع المرء التخلص منه عند خروجه من مكتبه فترافقه إلى البيت وتجالسه على المائدة وتسبقه إلى السرير فتظل عيناه مفتوحتين والأفكار تروح وتجيء في رأسه دون أن يهتدي إلى دفعها أو حل ما تعسر حله منها. وإذا استولى عليه النعاس بقى الفكر في تنبه فهو أبداً على عتبة الوعي. ومتى تكرر هذا كل يوم أفضى به إلى الاضطراب والقلق وتعب الأعصاب.

فعلى المصاب بالأرق أن يفهم أن هذا الخوف والاضطراب يمكن التخلص منهما لأن الأرق ما كان يوماً ليؤذي الصحة كما أثبتت التجارب العملية فإن حرمان المرء من النوم أربعة أو خمسة أيام متواصلة لا ينتج عنه سوى انزعاج أو تعب لا يلبث أن يتبدد ويزول ببعض ساعات من النوم، وتعود الأمور إلى مجاريها.

ومن الخطأ أن يظن المرء أنه في حاجة إلى التعويض عن كل الساعات التي لم ينمها.

لقد استطاعوا جلب الموت للكلاب بحرمانها النوم ستة أيام متواصلة. والصينيون يعاقبون بعض المجرمين بعذاب الأرق إلى أن يموتوا، لأن هذا

العذاب يشتد بعد اليوم الثامن حتى يصبح فوق طاقة البشر احتماله.

ولكن الأرق الذي نحن بصدده لا علاقة له بهذا الأرق المجلوب فهو لم يكن يوماً أرقاً كاملاً، وربما كان السهر ليلتين متواصلتين نافعاً في علاجه إذ يبرهن للمصاب به أن عدم النوم لا يقتل.

لا ريب في أن النوم راحة للعقل ومع ذلك ترى أن المفكرين وأصحاب الأعمال العقلية وهم أول من يفتقر إليه، هم الذين يحرمون منه ويأرقون ذلك لأنهم يعلقون عليه أهمية كبرى فإذا الخوف من عدم النوم يقصى عنهم النوم. حسبك أن تنظر إلى الكثيرين منهم كيف ينامون ملء جفونهم أواخر الأسبوع أي السبت والأحد لأنهم في غنى عن العمل حينذاك فتطمئن نفوسهم وهذا الاطمئنان يساعد على النوم.

إذن خير علاج للأرق أن لا يهتم المرء به كثيراً ويتخوف عواقبه، وقد أكثروا من النصائح في سبيل محاربته كوضع السجف السود وعصب العينين وسد الأذنين وغير ذلك من العادات التي لا يحسن الاستهزاء بها لما فيها من الإيحاء النفساني النافع وملامتها حالة الإنسان في بعض الأحيان.

على كل فالرياضة والغذاء الخفيف والإقلال من العقاقير خير ما يوصف في هذه الأحوال. والله أعلم.

مصل الحقيقة

قام في الأيام الأخيرة ضجة في الأوساط العلمية والقضائية حول استعمال بعض العقاقير المنوّمة لتحليل الأمور النفسية أو لحمل المجرم على الاعتراف بجريمته. وقد انقسم الناس في ذلك إلى قسمين ففريق يؤمن بهذه الطريقة ويرى فيها فصل الخطاب في حوادث كثيرة غامضة الأسرار ويعدها ترياقا سحرياً للأمراض العصبية، ومصلا يكشف الحقن به قناع الكذب والتنكر. وفريق لا يريدها بل يعتبرها بعيدة عن الفائدة المنشودة سواء استعملت كعلاج أم واسطة اختبار.

والذي أثار الاحتجاج بوجه خاص استعمالها في التحقيق القضائي، فقد نظروا إليها كضرب من ضروب التعذيب التي كانت تستعمل في القرون الوسطى. ووصموها بالحيف والعار لتعدّيها على الحرية وخرقها حرمة الذاتية الإنسانية. وطلبت نقابة الأطباء في فرنسا منع استعمالها على الشرطة والقضاة والأطباء المكلفين بفحص المتهم. ومنذ أشهر أحيل إلى القضاء ثلاثة من أشهر أساتذة الطب في باريس لاستخدامهم هذه الطريقة في فحص أحد المتهمين توصلا إلى كشف الحقيقة التي كان يحاول كتمانها.

فما تكون هذه الطريقة؟

هي استباحة العقل الباطن لسبر غوره والوقوف على أسراره بواسطة بعض العقاقير التي إذا حقن بها في الوريد (كالبانتوتال)، مثلا أحدثت

تخديراً في انتباه الإنسان وخففت من حذره، وخلقت فيه حالا مبهمة هي بين النوم واليقظة تساعد الذكريات والأميال المكبوتة على الانطلاق من مكمنها.

من قديم الزمان عرف الناس ما لبعض النباتات من خاصة التأثير في عقل الإنسان لتدفعه إلى الثرثرة والبوح بما لا يراد البوح به. ولنا في الخمر أسطع دليل على ذلك فهي تؤثر في الصموت فتحل عقدة لسانه، والكتوم فتتغلب على كتمانه وفي ذلك يقول الشاعر:

ولما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفي

وكلما أمعن المرء في السكر زاد اضطراب العقل وصار الكلام هذياناً وأطلق الخيال عنانه في آفاق مترامية. ولكل طريقته في الثرثرة والهذيان والتخيلات حسبما يملك عقله الباطن من الذكريات والأميال المكبوتة.

واستعمال المواد المسكرة والمخدرة كثيراً ما أغرى الأطباء في سبيل المعالجة والتشخيص، كالحشيش والكوكايين والأثير وغيره قبل أن يكشف البانتوتال وأمثاله. وقد وجدوا عند استعمال البانتوتال في التخدير الجراحى ما لفت نظرهم إلى الأخذ به في التحليل النفساني. ذلك أن المريض كان قبل صحوه من فعل المخدر يندفع في الكلام ويأخذ بسرد وقائع خاصة كان الأجدر به الإمساك عنها لما فيها من الفضيحة، مما حمل الأطباء على اتخاذ الحيطة بإبعاد ذويه عنه في هذه المرحلة من النوم. واستفاد علماء النفس من هذه الملاحظة فاستعملوا المخدرات في تشخيص الأمراض النفسانية، وأطلق "هورسلى" من أوكسفورد على هذه الطريقة اسم التحليل

بالتخدير **nares analyces** ثم انتهت التجارب بأطباء الإنجليز أيام الحرب وبعدها إلى استعمالها في المعالجة.

وقد وجدت كلية الطب في باريس (قسم الأمراض العقلية) بعد تجارب أربع سنوات أن هذه الطريقة في تشخيص ومعالجة الأمراض العقلية لا مزية لها إلا إذا روعيت شروط بدونها تخسر كل قيمتها، بل ربما كانت خطراً على المريض. فهناك درجات في التخدير قبل أن تصل إلى فصل الوعي عما تحته لتتمكن من سبر العقل الباطن. والجرعة اللازمة لبلوغ الغاية المنشودة لا يمكن الاهتداء إليها للمرة الأولى، ولابد من الاختبار وتعدد الجلسات ليكون فعل المصل كاملاً وناجعاً.

ولكن هل ينطبق هذا الاسم الرنان "مصل الحقيقة" على الواقع؟

إن مهمة القاضي الحصول على اعتراف المتهم، ومن حقه للتغلب على مقاومة الرجل أن يستعمل وسائل التحيل وإثارة عواطفه، وإزعاجه بكل واسطة ما خلا الضغط والإكراه. وعليه أن لا ينسى أن للرجل هذا حق السكوت والإنكار، وهو في هذا الصراع الذي يدافع فيه عن حياته وحريته أضعف الفريقين، ولهذا كان من الضروري أن يعطي من يدافع عنه ليوجه أجوبته ويحميه من الإعياء. وبما أنه لا يلزم باليمين لا هو ولا المحامي فلهما الحق بالكذب. وما قيمة الاعتراف إذا لم يكن عن رضى؟ والأفضل أن لا يحصل عليه من مجرم من أن ينتزع انتزاعاً من بريئ شله الألم.

ولقد مضى الزمن الذي كانوا يعذبون فيه المتهم ليحملوه على الإقرار فكان يضطر أحياناً إلى الاعتراف بذنوب لم يرتكبها. على أن هذا التعذيب

لا يزال له أثر في أرقى البلدان بما استنبطه العلم الحديث من الماء البارد والكهربائية والاستنطاق الطويل المعيى تحت النور الساطع، والتعريض للبرد وحرمان النوم والغذاء. أمور يخرج منها الرجل مهدم الجسم منهوك القوى.

ومثل هذا، التنويم الذي يشل الإرادة، وبعض العقاقير كالبانتوتال. وهي وإن نفعت في معالجة بعض الأحوال العصبية فإنها لا تخلو من الانتقاد عند استعمالها للتشخيص؛ أولاً: لأن بعض المجرمين ممن قويت إرادتهم وعظمت مقاومتهم لا يبرحون على الرغم من النوم المجلوب يكذبون وينكرون، كما أن الكثيرين ممن يقولون الحقيقة وهم نيام يقولونها في حالة وعي نسبي ولا فضل للمصل فيها بدليل أنهم بعد إفاقتهم يتذكرون ما قالوا. أما في حالة النوم العميق عندما تختلط حدود الواقع بحدود الخيال فالاعترافات التي تهم الطبيب لأنها تكشف أميال الشخص الحقيقية لا قيمة لها في نظر القاضي فهو يرى فرقاً شاسعاً بين الواقع والحلم، ولا يهمه أن يكون الرجل نوى القتل إن لم يقتل ولا تكفي النية لتحسب عليه الجريمة ما دامت لم تقع. يُحكى أن شاباً أسلم نفسه إلى الشرطة مدعياً أنه قتل أباه. وبعد التحقيق وجدوا الأب حياً. وكان الشاب قد تناول جرعة من الحشيش دون أن يدري فأسكرته وتراءى له في الحلم أنه قتل أباه وبقي هذا الأثر فيه بعد يقظته. هذا القتل الخيالي يدل على نفسية الشاب ومركب السفاح الموجود فيه كما في "أوديب الملك" لا أكثر ولا أقل. والعصبي الذي تملك طبيعته فكرة الإجرام يمكنه تحت تأثير التخدير أن يتهم نفسه بذنوب لم يرتكبها ولكنه تصورها.

من أجل هذا أنكر أكثر الناس مصل الحقيقة وحاربوه لأن العثار لا يؤمن معه لدى التحقيق، فضلا عن أنه اعتداء على حرية الإنسان وحرمة نفسه ولا يحق للقاضي أن يدخل كالسارق نفس المتهم.

على كلّ فسواء أريد به التشخيص أم التحقيق فلا بد من أخذ رأى المتهم أو المريض والحصول على رضاه قبل الإقدام عليه. ولا يعتبر رفض المتهم دليلا على تهربه من الحقيقة ولا يكفي ذلك لإدانته. يقال أن رودلف هس شريك هتلر شكا في نورمبرغ ضياع ذاكرته. ولما عرض عليه مصل الحقيقة لم يرفض ولكن اشترط أن يكون ذلك بعد الانتهاء من الدعوى.

يتبين للقارئ مما مر ما في هذا الموضوع من دقة البحث وما يحتمل من وجوه الجدل. ولا ريب أن منع استعماله يرضي الرأي العام في زمن كثر فيه الكذب فجاء هذا الاكتشاف نذيراً يقلق ضمائر الناس ويظهر لهم سخافة الحجب التي يخفون وراءها أحقادهم وأطماعهم وأوزارهم.

ومهما يكن لهذه الطريقة من حسنات فمن الخير الإعراض عنها قبل أن يصار فيها إلى التمادي، والإفراط في العبث بالحرية.

الفهرس